الأخلاق الإنسانية

بين الفطرة والاكتساب

د/ فتحى محمود محمد عبد الرحمن

مدرس العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ﷺ النبى الأمى الأمين الذى مدحه الله بقوله : { وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } (١) ، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد ،،،

فإن الإسلام هو المنهج الحق الذى شرعه الخالق لإصلاح الخلق ، فهو يهتف فى الناس إلى كل خلق فاضل، ويدعوهم إلى كل فضيلة مثلى ، لها منهجها العملى فى الواقع العقائدى، والتشريعى، والسلوكى، والأخلاقى التى لا تصلح حياة البشر إلا بالتمسك بها والحرص عليها، ولا ينعمون إلا فى رحاب الأخذ بها والتطبيق لها .

فصلاح الأمم والأفراد إنما يعتمد على الأخلاق ، فكم من أمة فى مضمار التقدم المادى تحوز فى ذلك المرتبة العليا ، ولكنها فى حياة الأخلاق لا رصيد لها ، فسرعان ما ينهار بناؤها المادى، ويتصدع نظمها الاجتماعى ، وفى المقابل كم من أمة رصيدها فى ميدان التقدم المادى، وحظها منه لا يكاد يذكر ، غير أنها فى ميدان الأخلاق ذات حظ عظيم ، فهى بهذا الرصيد تطاول الشمس فى ضحاها ، وما ذلك إلا بفضل أخلاقها الرفيعة العالية .

فالأخلاق التى بهذه الأهمية السامية وبهذه الكيفية السابقة أهى فى الإنسان فطرية مركوزة فيه متحجرة غير قابلة للتغيير والتبديل ، أم هى قابلة للتغيير والاكتساب بالوسائل التربوية السامية ؟ لهذا كان اختيارى لهذا الموضوع والذى بعنوان: (**الأخلاق الإنسانية بين الفطرة والاكتساب**).

منهج البحث :

وقد اتبعت فى هذا البحث المنهج النقدى ، وتمحيص الآراء والأفكار – موضوع البحث– وإظهار ما فيها من حق أو باطل بوضعها فى ميزان النقد العقلى والإسلامى ، ثم استخدمت المنهج المقارن للوقوف على توضيح الفروق بين القائلين بفطرة الأخلاق

---

(١) سورة القلم الآية [٤] .

والقائلين باكتسابها ، ثم ترجيح أحدهما من خلال وجهة النظر الإسلامية .

وقد قسمت هذا البحث على النحو الآتى : مقدمـــة ، وتمهيـــد ، وأربعـــة مباحـــث ، وخاتمة، وفهرس للمراجع .

أما المقدمة: وقد تضمنت أهمية الموضوع، ومنهج البحث، وخطة البحث.

وأما التمهيد : فقد اشتمل على التعريف بأهم المصطلحات الواردة فى عنوان البحث ، وهـــى كالتالى :

أولا : مفهوم الأخلاق فى اللغة والاصطلاح .

ثانيا : مفهوم الفطرة فى اللغة والاصطلاح .

ثالثا : تعريف الاكتساب فى اللغة والاصطلاح .

وأما المباحث فقد جاءت مرتبة على النحو التالى :

المبحث الأول : عوامل تكوين الأخلاق .

المبحث الثانى : القائلون بفطرية الأخلاق وأدلتهم .

المبحث الثالث : القائلون باكتساب الأخلاق وأدلتهم .

المبحث الرابع : وسائل اكتساب الأخلاق .

وأما الخاتمة : وقد تضمنت أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال دراستى لهذا الموضوع.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

التمهيد

التعريف بأهم المصطلحات الواردة فى عنوان البحث

أولا : مفهوم الأخلاق :

إن لكل علم من العلوم تعريفه الذى يميزه ويخصه عما سواه ، وعلم الأخلاق كغيره من العلوم ، فلقد حظى بكم هائل من التعريفات التى ساهم فى وضعها كثير من العلماء ، والباحثين فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، وهى وإن كان البعض منها متقارب فى لفظه ومعناه ، إلا أنها بهذه الكثرة تدل دلالة واضحة على ما لهذا العلم من الأهمية .

التعريف اللغوى :

الأخلاق جمع خلق ، والخلق بسكون اللام وضمها فى كلام العرب يطلق ويراد به : الدين والطبع والسجية ، والعادة وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة [١] .

وعلى أنه ينبغى أن نفهم من تعدد مدلولات هذه الكلمة أن الأخلاق ليست كلها على وتيرة واحدة ، كما قال الرازى (ت ٥٤٤ : ٦٠٦هـ) وذلك لأن منها ما قد جُبل عليه الإنسان ، وهو فطرى فيه كالطبع والسجية ، ومنها ما يمكن اكتسابه كالعادة ، وذلك عن طريق المران أو الممارسة والتعود [٢] .

التعريف الاصطلاحى :

لم يكن لعلم الأخلاق تعريف متفق عليه بين من تناوله بالدراسة من العلماء ، بل تنوعت فى رحابه التعريفات ، وتعددت الآراء واختلفت الاتجاهات ، كل يعرفه حسب تصوره أو فهمه لطبيعته وغايته ، ونظرا لكثرة تلك التعريفات ستقتصر الدراسة على أهمها .

---

(١) لسان العرب لابن منظور : ١١ / ٣٧٤ (خلق) ، ط دار المعارف .

(٢) انظر : مختار الصحاح للرازى ، ص ١٨٧ ، ط دار المعارف .

ونبدأ بتعريف الإمام الغزالى، حيث عرف الأخلاق بأنها: " عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا [١] .

ومعنى هذا أن الأخلاق تشمل الأخلاق الطبيعية المركوزة فى فطرة الإنسان، والصفات التى اكتسبها بالتدريب والمران، وأصبحت كأنها خلقت مع طبيعته ، فمزوالة الخلق المطلوب تعطى الملكات ، بمعنى أنها تصير ملكة لصاحبه، فمن يزاول خلقا يريده كالصبر مثلا فإنه يتمرن عليه ، ولا يزال يتكلفه حتى يصبح الصبر له سجية، وكذلك من يزاول الحلم والوقار، والصدق يمكن أن تصير له هذه الصفات أخلاقا بمنزلة الطبائع .

أما عن تعريف الأخلاق كعلم له مبادئه ، وأصوله وقواعده ، فيمكن أن يعرف " بأنه العلم الذى يدرس السلوك الإنسانى ويبحث فى المبادئ والأسس النظرية العامة لضبطه حتى يكتسب قيمة أخلاقية " .

ويمكن أن يقال فى تعريفه أنه " علم يدرس ظاهرة السلوك الإنسانى من حيث منابعه ودوافعه وغايته ، ويحدد القيم والقواعد العملية التى يجب مراعاتها فى السلوك ، وأيا كان لون هذا السلوك أو شكله كما يدرس وسائل الإلزام والالتزام بالسلوك الخير ، ووسائل الابتعاد عن السلوك الشرير " [٢] .

ومن أدق وأجمل ما قيل فى تعريف علم الأخلاق ما عرفه البستانى فى (دائرته) بقوله بأنه : " علم بالفضائل وكيفية اقتنائها لتتحلى النفس بها ، والرذائل وكيفية توقيها لتتخلى عنها " [٣] .

وأرى أن هذا التعريف يعد من أجمع وأجمل ما قيل فى تعريف الأخلاق ، وذلك لأنه جاء شاملا لما يتضمنه هذا العلم بشقيه الشق النظرى مضافا إلى الشق العملى ؛ ذلك لأن

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ، تحقيق / محمد عبد الله الزغبى : ٣ / ٥٢ ، ط : دار المنار .

(٢) الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ، د / مقداد يالجن ، ص ٩٥ ، ط : الخانجى بمصر ١٩٧١م .

(٣) دائرة المعارف للبستانى : ٢ / ٦٣٥ ، ط : دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، وراجع : فلسفة الأخلاق ، د / توفيق الطويل ، ص ١٦٠ ، ط : دار النهضة العربية ١٩٧٩م .

علم الأخلاق ليس علما نظريا ينتهى عمله عند معرفة الفضائل والرذائل فحسب ، بل هناك جانب أخر غاية الأهمية ، وهو معرفة الكيفية التى يتم عن طريقها التحلى بهذه الفضائل ، والتخلى عن تلك الرذائل .

ثانيا : تعريف الفطرة :

مفهوم الفطرة فى اللغة :

يقال فطر الشئ يفطره فطرا فانفطر ، وفطره شقه ، وتفطر الشئ : تشقق ، والفطر : الشق ، جمعه فطور ، وفى التنزيل العزيز : { هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ } (١) .

وفطر الله الخلق يفطرهم : خلقهم وبدأهم (٢) .

والفطرة بالكسر الخلقة ، والفطرة : ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به ، وقد فطر يفطره بالضم فطرا أى خلقه (٣) .

تعريف الفطرة فى الاصطلاح :

لقد جاءت تعريفات الفطرة فى الاصطلاح قريبة من معناها فى اللغة، حيث يعرفها الجرجانى بقوله هى : " الجبلة المتهيئة لقبول الدين " (٤) .

على حين يعرفها الأصفهانى بقوله هى : " إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترسخة لفعل من الأفعال " (٥) .

والمذهب الفطرى : هو المنسوب إلى الفطرة، وهو مقابل للمكتسب، والفطرة هى الحيلة التى يكون عليها كل موجود فى أول خلقه (٦) .

---

(١) سورة الملك من الآية [٣] .

(٢) انظر : لسان العرب لابن منظور : ٥ / ٣٤٣٢ (فطر) .

(٣) المصدر السابق: ٥ / ٣٤٣٢ ، وراجع: تاج العروس للزبيدى: ١٣ / ٣٢٨ بتصرف ، تحقيق : د / حسين نصار ، ط : حكومة الكويت ١٩٧٤م .

(٤) التعريفات للجرجانى ، ص ١٩٠ ، تحقيق : د / عبد المنعم الحفنى ، ط : دار الرشاد .

(٥) المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى ، ص ٣٨٩ ، ط : مصطفى البابى الحلبى .

(٦) انظر: المعجم الفلسفى، د/ جميل صليبا: ١٥٢/٢، ط: دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، لبنان .

ويفهم من هذا أن المعنى اللغوى والاصطلاحى : يتفقان ويتقاربان فى أن مفهوم الفطرة هو :

١ – الخلقة أو الهيئة التى خلق الناس عليها .

٢ – ما ركزه الله فى نفوس الناس من المعرفة به ، وطريق الوصول إليه (١) .

ثالثا : مفهوم الاكتساب :

تعريف الكسب فى اللغة :

الكسب فى اللغة : طلب الرزق ، وأصله الجمع ، كسب يكسب كسبا ، وتكسب واكتسب ، قال سيبويه : كسب : أصاب ، واكتسب : تصرف واجتهد (٢) .

قال الواحدى – رحمه الله – : الصحيح عند أهل اللغة أن الكسب والاكتساب واحد لا فرق بينهما، والقرآن ناطق بذلك، قال الله تعالى: { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } (٣) وقال : { وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا } (٤) فدل هذا على إقامة كل واحد من هذين اللفظين مقام الآخر (٥) .

الكسب فى الاصطلاح :

عرف الجرجانى الكسب فى الاصطلاح بقوله : " هو الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع أو دفع ضرر ، ولا يوصف فعل الله بأنه كسب ؛ لكونه منزهًا عن جلب نفع أو دفع ضر " (٦) .

---

(١) انظر : الفكر التربوى عند المتكلمين المسلمين، د / أحمد عرفات، ص ١٧٠ .

(٢) انظر : لسان العرب لابن منظور : ٥ / ٣٨٧٠ (كسب) .

(٣) سورة المدثر الآية [٣٨] .

(٤) سورة الأنعام من الآية [١٦٤] .

(٥) انظر : التفسير الكبير للرازى : ٧ / ١٥٣ ، ط : أولى ١٩٩٨م ، المطبعة البهية المصرية .

(٦) التعريفات للجرجانى ، ص ٢١٠ .

المبحث الأول

عوامل تكوين الأخلاق

بادئ ذى بدء نود القول بأن هناك عدة عوامل لها عظيم الأثر فى تكوين الأخلاق الإنسانية منها : العادة والغرائز والوراثة والبيئة ، ونظرا لكثرة تلك العوامل ستقتصر الدراسة على أهم عاملين من هذه العوامل ؛ لما لهما من أثر عظيم فى تكوين الأخلاق ، ألا وهما : الوراثة والبيئة ، ولا نعد مبالغين إذا قلنا : إن هناك ثمت إجماع فيما بين علماء الأخلاق على أن الوراثة والبيئة هما العاملان الأساسيان فى تكوين الأخلاق ، فكما أن الإنسان يحيا فى بيئته ، فيتأثر بها ويؤثر فيها ، فإن له كذلك آباءً وأجداداً هم أصوله تولد منهم ، وماثلهم أو شابههم فى كثير من الأمور ، وهذا يدعونا إلى استظهار حقيقة العلاقة بين خلق الإنسان ، وبين أصوله التى نشأ عنها من جهة ، وبيئته التى يحيا فيها من جهة أخرى وذلك هو ما يعرف ببحث أثر الوراثة ، والبيئة فى خلق الإنسان .

أولا : مفهوم الوراثة :

هناك تعريفات عدة للوراثة ولعل أدقها هو أنها : " انتقال بعض خصائص الأصل إلى الفرع ، قل ذلك أم كثر " (١) .

ولقد كشف كثير من الباحثين عن قوانين الوراثة فى كل مظاهرها ، وقرروا أن قانون الوراثة فى الصفات العقلية، والخلقية معناه أن الفرع لا يرث عن أصله الصفات العقلية، والخلقية مباشرة، وإنما يرثها عن طريق ميراث مصدرها ، ومعظم هذه الصفات يتأخر نضجها ووضوحها إلى دور البلوغ ، أى أن جرثومة هذه الصفات توجد فى الجنين منذ تكوينه ، وتبدو بوادرها بعد الولادة ، ولا تستكمل نضجها إلا بعد البلوغ (٢) .

---

(١) تأملات فى فلسفة الأخلاق ، د / منصور رجب ، ص ١٠٧ ، ط : الأنجلو المصرية ، ط : الثالثة ١٩٦١م .

(٢) الوراثة والبيئة ، د / على عبد الواحد وافى ، ص ٩٠ بتصرف .

أثر الوراثة فى تكوين الأخلاق :

لا يستطيع عاقل منصف أن ينكر ما للوراثة من أثر فـى الإنسـان جسـميا وعقليـا وخلقيا، وليست النتائج التى توصل إليها الباحثون فـى هـذا المقـام إلا أثـر الملاحظـات والتجارب المتعددة ، فلقد ثبت أن الطفل يرث عن أبويه بعض الأخلاق والتقاليـد ، وهـذا لا يمنع من كون الفطرة البشرية صالحة لكل نقش وغرس عليها ؛ لأن الأخلاق التى يرثها من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقتلاع ، ما لم يتعدها المربون ، فهـم لا يرثـون غرائـز نامية ، ولا ملكات ناضجة ، وإنما يرثون عنهم استعدادات ، وعلـى التربيـة إبـراز هـذا الاستعداد وتنميته .

يقول الأصفهانى : " إن المآثر الموروثـة قليلة الغناء ، سريعة الفناء ، ما لم تضـم معها فضيلة النقش ، ومن هنا تظهر الحاجة الماسة للمربى الحكيم، فهـو القـادر علـى أن ينتفع بما يأتى به الطفل من حسنات ، كما أن فى يده أن يقلل من حـدتها ، ويخفـف مـن شدتها إن جنحت للطريق الأخرى " (١) .

إن الصفات الجسمية تؤثر فى الصفات الخلقية ، فالخصائص الجسمية التى يرثها الفـرع عن أصوله لها دخل كبير فى تكوين الأخلاق عند الإنسان ؛ لأنها تتدخل فـى تكـوين نفسـيته ، وتكون تفاعلاته مع الآخرين إيجابا وسلبا ، وهذه التفاعلات هى التى تصوغ الأخلاق ، وتكـون فى نفس الوقت صدى لها ، فالشخص الذى ورث عن أصوله خلقا سويا ، وشكلا مقبـولا خـلا من العيوب الخلقية والعاهات الجسدية ، مثل هذا الإنسان نراه يندمج فـى المجتمـع ، ويتفاعـل معه بنفس منطلقة وتصرفات سوية ، بعيدة عن العقد والرواسب النفسية، وذلـك علـى عكـس إنسـان آخر ، ورث عن أصوله بعض العيوب الخلقية ، كالقصر ولون البشرة ، فمثل هذا نـراه منطويا على نفسه ، والعقد والأمراض مترسبة فى نفسه وبالتالى نجد أن أخلاق كلا الشخصـين تختلف عن الآخر ، وهذا هو دور الوراثة فى تكوين الأخلاق عند الإنسان (٢) .

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهانى ، ص ٢٧ ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنـان ، ط : أولى ١٩٨٠م .

(٢) انظر : دراسات فى العقيدة والأخلاق ، د / محمود محمد مزروعة وآخـرين ، ص ١٨٧ ومـا بعدها .

ويفهم من هذا أن الصفات الخلقية تورث ، ولكن بطريق غير مباشر ، تظهر فى الطفل ضعيفة جدا ، فتقبل التأديب والتهذيب والإصلاح والتقويم ، وإن شئت فقل الأطفال يرثون عن أصولهم الاستعدادات الخلقية فقط ، أما القول بأن الصفات الخلقية تورث نامية ، وناضحة كالصفات الجسمية ، فهذا ما لا نستطيع القول به ؛ لأنه يبطل جدوى التربية ، وبعض أثر التأديب ، ويهدم الحكمة من الدين وبعثة الرسل ؛ لأن الأخلاق ما دامت تورث فلا أمل فى تغييرها ، ولا طمع فى تحسينها .

ولو كان هذا المذهب صحيحا لوجدنا أسرة بأكملها شريرة لأنها ورثت هذا الطبع من القدم ، ولوجدنا أسرة بتمامها صالحة ما تخلف منها أحد ؛ لأنها ورثت الخير والصلاح كابرا عن كابر ، ولكننا نجد العكس من ذلك فربما وجدنا أسرة ينتشر بين أفرادها الفساد ولكن يخرج منها أفراد يسيرون على الخير والهدى والتقوى .

أضف إلى ذلك لقد قرر علماء النفس المحدثون –من بين ما قرروا– أن مجرد التشابه بين الأب والابن فى الفعل الخلقى لا يدل على وراثته بل قد يكون السبب هو التقليد والمحاكاة ، أو اتحاد ظروف بين الأب والابن أو غير ذلك من العوامل ، ولهذا كله خفف علماء الوراثة من أثرها وقالوا إنها تورث فى أغلب حالات الاستعدادات للأخلاق فقط ، أما ظهورها بالفعل فيتوقف على عوامل أخرى ، تعرض للإنسان فى حياته ، على أن يدخل فى هذا العوامل الاختيار الحر للإنسان فى تكوين الأخلاق [١] .

ثانيا : البيئة :

من العوامل التى لها عظيم الأثر على تكوين الأخلاقية الإنسانية البيئة ، وتطلق ويراد بها معان عدة منها : أنها الأشياء التى تحيط بالجسم الحى ، وينمو فيها ، فبيئة النبات هى تربيته ومناخه ، وبيئة الإنسان ما يحيط به من بلاد وبحار وأنهار وغير ذلك .

أو هى كل ما يحيط بالمرء ، ويؤثر فيه بطريق مباشر ، أو غير مباشر فى جميع مراحل حياته مثل : المنزل والمدرسة والجامعة وغير ذلك [٢] .

---

(١) انظر : علم النفس والأخلاق – تحليل نفسى للخلق – تاج . أ . هادفيلد ، ترجمة / محمد عبد المجيد أبو العزم ، ص ١٨ وما بعدها ، ط : مكتبة مصر.

(٢) انظر : الظاهرة الأخلاقية وعلاقتها بالوراثة والبيئة ، د / عثمان عبد الواحد ، ص ٤٥ .

وبمعنى أدق إنها : " الوسط الذى تزاول فيه حياتك ، من يوم أن تكون جنينا فى بطن أمك حتى تفارق الحياة " (١) .

أنواع البيئة :

أولا : البيئة الطبيعية :

"وهى كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر الطبيعة ، مما لا دخل فى تكوينه أصلا، كالأرض والماء والهواء، وغير ذلك فكل هذه الأشياء مظاهر للطبيعة، لم تكونها يد الإنسان"(٢).

أثر البيئة الطبيعية فى تكوين الأخلاق :

للبيئة الطبيعية أثر ، ودور فعال فى تكوين الأخلاق الإنسانية ، وقد توصل المفكر الإسلامى العلامة ابن خلدون (٣) إلى ذلك بكثير من الملاحظات الدقيقة ، فيقول مثلا عن سكان الأقاليم المعتدلة : " أنهم أعدل أجساما وألواناً وأخلاقاً " ثم استنتج من دراسته لأثر البيئة الطبيعية فى تكوين الأخلاق أن الله – سبحانه – اختار هذه الأقاليم لتكون مهدا لرسالة الأنبياء؛ "لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع الإنسانى في خلقهم وأخلاقهم"(٤)، وقال عن سكان الأقاليم البعيدة عن الاعتدال أنهم " أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم"(٥).

مما سبق يفهم ما للبيئة الطبيعية من أثر على تكوين الأخلاق الإنسانية ، ومع اعترافنا وإقرارنا بذلك إلا أنه لا ينبغى الجنوح إلى المبالغة فى تأثيرها على الأخلاق الإنسانية ؛ لأن الله – سبحانه – قد منح الإنسان من القوى ، والأجهزة ما يستطيع به أن

---

(١) دراسات فى العقيدة والأخلاق ، د / محمود محمد مزروعة وآخرين ، ص ١٩٢ .

(٢) دراسات فى العقيدة والأخلاق ، د / مزروعة وآخرين ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٣) ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، ولد بتونس وتوفى بالقاهرة ، وتقلب فى مناصب عدة ، وارتحل كثيرا ، ودون أفكاره فى سبع مجلدات كتبها فى نحو ثلاث سنوات عن تاريخ العرب والبربر بعنوان : " كتاب العبر " ، اشتهر منها المجلد الأول المعروف باسم مقدمة ابن خلدون . [الموسوعة الفلسفية ، د / عبد المنعم الحفنى ، ص ١٤] .

(٤) المقدمة لابن خلدون ، ص ٩٢ ، المقدمة الثالثة فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف .

(٥) المقدمة لابن خلدون ، ص ٩٢ .

يكيف نفسه ، ويسلك سبيل الفضيلة ، وإن كان يحيا فى أبعد الأقاليم عن الاعتدال ، كما أنه قد يسلك سبيل الرذيلة ، وإن كان فى أعدل الأقاليم ، سيما فى عهد التقدم العلمى الذى هيأ الإنسان أن يكيف الجو المحيط به كيفما يريد .

ثانيا : البيئة الاجتماعية :

تعريفها : " وهى كل ما اخترعه الإنسان مما لم يكن موجودا فى الطبيعة مثل البيت والمدرسة والقرية وغير ذلك " [(١)] .

أثر البيئة الاجتماعية فى تكوين الأخلاق :

وكما للبيئة الطبيعة أثر فى تكوين الأخلاق الإنسانية ، كذلك للبيئة الاجتماعية أثر واضح ، بل ربما زاد أثر الثانية عن الأولى ؛ لأن العوامل الطبيعية جامدة على حال واحدة ، بخلاف العوامل الاجتماعية ، فإنها ثمرة النمو الفكرى والعقلى ، والنضج الوجدانى للنوع الإنسانى ، بل إن الإنسان بفضل تقدمه الفكرى والحضارى قد استطاع أن يتحكم فى البيئة الطبيعية ، فاستزرع الصحارى ، وشق الترع ، وأقام على جوانبها القصور ، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على مدى أثر البيئة الاجتماعية فى تلوين الحياة ، وبالتالى أشد أثرا فى تكوين الأخلاق ، ويبدأ أثر البيئة الاجتماعية على الإنسان منذ وجوده فى بطن أمه ، فمنها يتلقى غذاؤه ، وغذاؤه هذا يتأثر إلى حد كبير بما يعترى الأم من حالات نفسية ، كاللذة والألم والفرح والحزن وغير ذلك [(٢)] .

والمثال الآتي يوضح كيف يتأثر الجنين فى بطن أمه بما تتأثر هى به، لقد عاش الفيلسوف الإنجليزي هوبز [(٣)] طول حياته يشكو من ألم " الانكماش " و " الخوف "

(١) دراسات فى العقيدة والأخلاق ، د / مزروعة وآخرين ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) انظر : دراسات فى فلسفة الأخلاق ، د / محمد نصار ، ص ٩٤ وما بعدها ، ط : دار القلم ، الكويت ، ط : أولى ١٠٨٢م .

(٣) توماس هوبز : فيلسوف إنجليزي ، ولد فى ٥ نيسان ١٥٨٨م ، ومات فى ٤ كانون الأول ١٦٧٩م، وكان ابنا لقسيس وتردد على المدارس من مسقط رأسه وله شذرات من المؤلفات منها: مبادئ القانون الطبيعى والسياسي، ولكنه عندما نشره ، نشره فى رسالتين منفصلتين . واحدة بعنوان : فى الطبيعة الإنسانية ، والثانية بعنوان : فى الجسم السياسي . [انظر : معجم الفلاسفة للطرابيشى ، ص ٦٥٣ ، ط : دار الطبيعة ، بيروت ، ط : الأولى ١٩٨٧م] .

ويعزوهما إلى انزعاج أمه عندما اقترب الأسطول الأسباني "ارمدا" من شواطئ انجلترا، وكان وقتها جنينا فى بطن أمه ، ثم يأتى بعد بطن الأم ، دور المنزل والأسرة ، وفيهما يفهم الطفل العلاقات الاجتماعية الأولى وبالجملة يأخذ الطفل عن الأسرة تقاليدها وعاداتها ؛ لذلك كانت مرحلة الطفولة أدق مراحل حياة الإنسان ففيها يتشرب جميع القيم ، ثم يأتى بعد ذلك دور مرافق التعليم والتوجيه ، من مدرسة وجامعة ومسجد ووسائل الإعلام ... الخ وكلها من المؤثرات التى تؤثر فى الأخلاق ، فمثلا المدرسة تعتبر الحلقة التى تربط المنزل بالعالم الخارجى، فهى مجتمع صغير، تقوم بدور هام لا يقوم به المنزل فى تربية الناشئ أدبيا، كما أن المدرسة من ناحية أخرى ملتقى الأصدقاء والمعارف وفيها يأخذ التلميذ من أخلاقهم ، ويعطيهم من أخلاقه ، بحكم المعاشرة وسرعة الاستجابة ، وخاصة فى المراحل الأولى من حياة البشر (١) .

وكذلك للأصدقاء أثر عظيم فى تكوين الأخلاق ، وسيأتى تفصيل أثر الصحبة ، وغيرها على الأخلاق الإنسانية ، عند الحديث عن وسائل اكتساب الأخلاق .

وصفوة القول فى ذلك كله : أن الإنسان إذا نشأ وتربى فى بيئة صالحة ، ومدرسة راقية وصحبة مؤدبة نبت خير منبت ، وتخلق بأكمل خلق ، أما إذا تربى فى بيئة فاسدة ، من نبت غير صالح ، ورفقة فاشلة نبت شر منبت ، وبذلك يتضح أن للبيئة بنوعيها الأثر الواضح على الجسم والعقل والخلق مثل الوراثة .

وهنا يتردد على الذهن سؤال هام ، وهو : أى العاملين أعظم أثراً على الأخلاق الوراثة أم البيئة ؟

وفى الحقيقة لقد اختلف علماء الأخلاق فى ذلك اختلافا ملخصه أن منهم من ذهب إلى أن الوراثة أعظم أثراً ، وأقوى خطراً فى تكوين الخلق الإنسانى وسلوكه ، وزعموا أن الوراثة هى يد القدرة ، وليس للبيئة أثر يذكر ، والبعض الآخر تعصب للبيئة ، وقال إن ما يشاهد الآن من كمال فى الأخلاق مرجعه للبيئة ، وليس للوراثة أثر يذكر ، والقول الفصل فى هذه المسألة أن للوراثة ، والبيئة الأثر الكبير فى تكوين أخلاق الإنسان وسلوكه ، فالوراثة تمده بالغرائز والميول والاستعدادات المختلفة ، والبيئة تميل به لناحية الخير أو

---

(١) انظر : دراسات فى فلسفة الأخلاق ، د / محمد نصار ، ص ٩٦ .

الشر بما تهيئه من فرص ومناسبات .

أما مدار أثر كل منه فى تكوين الإنسان أخلاقيا وسلوكيا ، فهذا ما لم يقل فيـــه العلـــم كلمته حتى الآن [١] .

(١) انظر : فلسفة الأخلاق فى الإسلام ، د / محمد يوســـــف موســـى ، ص ١٢٥ ، ط : مكتبـــة الخانجى ، القاهرة ، ط : الثالثة ، وراجع : الأخلاق النظرية والعملية فى الإســـلام وعلاقتهـــا بالأخلاق فى الأديان الأخرى ، د / حسن جبر : ١ / ٣٢ ، ط : الحسين الإسلامية ، ط الثانيـــة ١٩٩٤م .

المبحث الثانى

القائلون بفطرية الأخلاق وأدلتهم

لقد تعددت الآراء وتباينت بين فطرية الأخلاق الإنسانية واكتسابها ، وبـذلك انقسم الفلاسفة ، والمفكرون إلى قسمين واتجاهين متباينين :

الاتجاه الأول : يرى أن الأخلاق فطرية فى الإنسان ، وعلى ذلك تكون أخلاقه غير قابلة للتغيير والتبديل ، وهم بهذا يرون جمود الطبع الإنسانى أمام كافة الوسائل ومختلف الأسباب .

يقول (اندريه كرسون) موضحا رأى أصحاب هذا الاتجاه إجمالا : " وفلاسفة هذه التعاليم يرون من العبث محاولة تعديل السلوك الإنسانى ، فكل جماعة فى كل دور تاريخى لها مقرراتها الأخلاقية، التى ما كان يمكن أن تتخلف عن الدور الخاص بها من التاريخ، كما أن كل فرد فى كل لحظة من حياته له أخلاقه التى ما كان يمكن أن يتخطى ظهورها تلك اللحظة"(١).

ثم يقول : " إن محاولة بعض الأخلاقيين تغير الأخلاق الإنسانية ما هو إذن إلا دليل على ما هم عليه من السذاجة " (٢) .

ومن هؤلاء الفلاسفة الذين يرون بعدم قابلية الأخلاق للتغيير الفيلسوف الألمانى شوبنهور (٣) الذى يرى " لكل فرد طابعه الأخلاقى الذى لا يتغير ، وكل محاولة لدفع الفرد

---

(١) الأخلاق فى الفلسفة الحديثة ، اندريه كرسون، ترجمة د / عبد الحليم محمود ، أبو بكر ذكرى، ص ٩٩ ، ط: الحلبى ، القاهرة ، وراجع : دراسات إسلامية ، د / محمد نصار ، ص ٩٠ ، ط : دار القلم ، الكويت .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٣) أرثر شوبنهاور : فيلسوف ألمانى ، ولد فى ٢٢ شباط ١٧٨٨م ومات فى ٤ أيلول ١٨٦٠م وكان والده تاجرا ذا أفكار جمهورية وقد أختار لابنه اسم أرثر لأنه واحد فى جميع اللغات ، وقد صدرت له مذكرتان فى عام ١٨٤١ فى الأخلاق تحت عنوان: المشكلتان الأساسيتان فى الأخلاق . [انظر : معجم الفلاسفة للطرابيشى ، ص ٣٧٤ وما بعدها] .

إلى أن يعدل سلوكه ، وكل تعليم أخلاقى يؤخذ به إنما هو أفكار لحقيقة ، لا جـدول فيهـا ، ليس من الممكن تعليم المرء كيف يريد " (١) .

ويدلل (شوبنهور) على مذهبه بقوله : " يولد الناس أخياراً ، أو أشرارا كمـا يولـد الحمل وديعا ، والنمر مفترساً ، وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة النـاس وعـاداتهم ، كما يصف التاريخ الطبيعى حياة الحيوان " (٢) .

ويقول أيضا : " أيمكن للأخلاق أن تجعل من غليظ القلب رجلا رحيما عادل محسنا ؟

كلا : فالفروق الخلقية غريزية ثابتة ، وما الخبيث فى خبثه المـوروث إلا كالأفـاعى بأنيابها ، وجيوبها السامة ، فلا تتخلص هى ولا هو مما عليهما إلا قليلا جدا " (٣) .

فـ(شوبنهور) يقرر أن الإنسان يولد مزودا بأخلاقه كـالحيوان تمامـا ، ومهمـا تعلـم الإنسان فلن يستطيع أن يغير شيئا من أخلاقه أبدا ، إذن فمهمة علم الأخلاق أن يعكـس أخـلاق الإنسان ، ويصورها كما هى تماماً ، كما يفعـل علم التاريخ الطبيعى بالنسـبة للحيـوان ، لقـد نال كل فرد مزاجـه وأخلاقـه مرة واحدة عن طريق الوراثـة من أبويـه ، فكيف يسـتطيع أن يغيرها ؟ وإذا بدا أن أخـلاق بعض الناس تبدلت فما هو إلا تبدل وهمى خداع (٤) .

ويوافق الفيلسوف الفرنسى (ليفى بريل) (٥) شوبنهور فى مذهبه حيث يـرى : " أن

---

(١) دراسات إسلامية ، د / عبد الله دراز ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩١ .

(٣) حياة الحقائق، غوستان لوبون، ترجمة / عادل الزعيتر ، ص ١٥٠ ، ط : دار إحيـاء الكتـب العربية ، القاهرة ١٩٤٩م .

(٤) انظر : شوبنهور ، اندريه كريسـون ، ترجمة د / أحمد كوى ، ص ١٣٠ ، ط : دار بيـروت للطباعة والنشر ١٩٥٨م .

(٥) لوسيان ليفى بريل فيلسوف فرنسى ولد ١٠ نيسان ١٨٥٧ فى باريس ، وفيها توفى فـى ١٣ آزار ١٩٣٩م ، وقد اهتم ليفى بريل فى المقام الأول بالمسائل المتعلقـة بالتـاريخ والأخـلاق والفلسفة ٠ نشر فى عام ١٨٨٤ أطروحتى دكتوراه الأولى حول فكرة المسـئولية ، والثانيـة حول فكرة الله عند سنيكا وغير ذلك من المؤلفات . [انظر : معجـم الفلاسـفة للطرابيشـى ، ص ٥٦٣] .

ميولنا الحسنة أو القبيحة التى نجئ بها إلى هذا العالم عند ولادتنا هـى بطبيعتنـا ، فكيـف نكون مسئولين عن طبيعة ، هى ليست من عملنا ، أو على الأقل ليست عملنـا الشـعورى الاختيارى " (١) .

ويترتب على ذلك أنه يجب على فكرة الأخلاق الطبيعية أن تفسح مكانها لفكرة القـول بأن جميع أنواع الأخلاق الموجودة أخلاق طبيعية ، فهى طبيعية كلها على حد سواء مهمـا يكن من شأن الدرجة التى تحتلها كل منهما فى التصنيف الذى نقرره لها (٢) .

ويستدل ليفى بريل على مذهبه هذا بقوله : " فأخلاق المجتمعات الاسـترالية طبيعيـة تماما كأخلاق أهل الصين ، والأخلاق الصينية طبيعية مثل الأخلاق فـى كـل مـن أوروبـا والامريكتين ، وكل نوع من هذه الأخلاق هو على وجه الدقة النوع الذى كان يمكن أن يوجد بناء على مجموعة الشروط الموجودة بالفعل " (٣) ، " وفى الجملة نعتقد أن الإنسان أخلاقـى بطبعه كما أنه عاقل بطبيعته " (٤) .

ويفهم من هذا أن (ليفى بريل) يؤكد ما ذهب إليه (شوبنهور) من أن الإنسان يولد خيرا بطبعه ، أو شريرا بطبعه ، وهو غير مسئول عن طبيعة ليس له يد فى صـنعها علـى هذا الجانب أو ذاك .

ويوافقه على جبريته هذا (سبنسر) (٥) الذى يرى : " أننا مجبورون على السـير

(١) دراسات إسلامية ، د / عبد الله دراز ، ص ٩١ .

(٢) الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية ، ليفى بريل ، ترجمة : د / محمود قاسم ، وراجعه : د / السيد محمد بدوى ، ص ٢٨٧ بتصرف ، ط مصطفى الحلبى .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٨٨ .

(٥) هربرت سبنسر فيلسوف انجليزى ولد فى ٢٤ نيسان ١٨٢٠ م ، وتوفى فـى ٨ كـانون الأول ١٩٠٣ م أول مؤلفاته كانت عبارة عن سلسلة من الرسائل كتبها لمجلة اللامتثالى حول مسألة حدود سلطة الدولة ، ورسائل حول دائرة الحكم الخاصة ١٨٤٢م واهتم للمرة الأولى بصـورة جديدة بالمتيافزيقيا وعلم النفس من خلال مطالعته مـذهب المنطـق لجـون اسـتيوارت مـل وملاحظات حول حس الجمال لكنط [انظر معجم الفلاسفة للطرابيشى ص ٣٢٧ وما بعدها] .

فى الطريق الذى رسـمته لنا الطبيعة وإذا أحببنا هذه الطريقـة فلأن الطبيعـة هـى التـى جعلتنا نحـبه ، وهى التى تجبرنا على السير فيه " (١) .

ولذلك فهو يصرح فى موضع آخر فيقول : " إن حماسة الأخلاقيين ونشاطهم فى نشر العلم رغبة فى إصلاح البشرية، إنما هو بدعة وسخافة وكيف يرجـى مـن العلـم تهـذيب النفوس ، بينما نرى من المتعلمين الذين استنارت عقولهم لا خلاق لهـم ، هـذا وبجانـب هؤلاء نجد من الجهلاء والأميين من هم على جانب عظيم من الاستقامة والشرف " (٢) .

وفى نفس هذا الاتجاه قد سار الفيلسوف الألمانى (كانط) (٣) الذى قال : " إن الـذى يشاهد موقف الإنسان فى ظرف معين ، ويعرف سوابق تصرفاته فى مثـل هـذا الموقـف يستطيع أن يتنبأ تنبؤا صادقا بما يفعله الإنسان فى هذا الظرف المعين كما يتنبأ العالم الفلكى بكسوف الشمس وخسوف القمر فى ساعة محدودة (٤) .

ولذلك " فإن الإنسان لا يتردد فى أن يخلع على الطبيعة ككل ، وأن نظرنا إلـى هـذا الكل نظرتنا إلى الآلة " (٥) .

---

(١) الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ، د / مقداد يالجن ، ص ١٩٧ .

(٢) دراسات فى فلسفة الأخلاق ، د / محمد نصار ، ص ٢٤ ، وراجع : مباحث فى فلسفة الأخلاق، د / محمد يوسف موسى ، ص ١٣ ، ط : دار الكتاب العربى ١٩٤٨م .

(٣) عمانويل كانط فيلسوف ألمانى ولد ومات بروسيا الشرقية (٢٢ نيسان ١٧٢٤ – ١٢ شـباط ١٨٠٤) من أسرة من البورجوازية الصغيرة يرجع أصلها ، فيما يبدو إلـى اسـكتلندا ، لـه مؤلفات عدة منها : نقد العقل العملى سنة ١٧٨٨ مسبقا بـ " أسس متيافزيقيا الأخلاق ١٧٨٥ ونقد الحكم ١٧٩٠ مسبقا بـ " استعمال المبادئ الغائية فى الفلسفة ١٧٨٨م وإلى جانب هذين النقدين بضعة تأليفات صغيرة أخرى[انظر: معجم الفلاسفة جورج طرابيشى، ص ٤٧٤ ومـا بعدها].

(٤) كلمات فى مبادئ علم الأخلاق، د/ محمـد عبـد الله دراز، ص ٧٦ ، ط: القـاهرة ١٩٥٢م ، وراجع : تأسيس ميتافزيقا الأخلاق ، كانط ، ترجمة : د / عبد الغفار مكـاوى ، ص ٧٩ ، ط : الدار القومية للنشر والطبع ١٩٦٥م .

(٥) تأسيس ميتافزيقا الأخلاق، كانط ، ترجمة : د / عبد الغفار مكاوى ، ص ٧٩.

والذى يفهم من آراء هؤلاء الفلاسفة أن الأخلاق كلها طبيعية ، وأنه لا يمكن تغييرها وأن ترويض النفس لا يفيد عندهم فى ذلك ، وهؤلاء الفريق " تتحكم فيهم النظـرة الماديـة للأشياء والناس ، فالعالم فى نظرهم كتلة تحكمها قوانين ثابتة ، وكل العلوم طبيعية كانت أو إنسانية سواء فى خضوعها للقوانين الطبيعية ، وما الإنسان فى نظرهم إلا طبيعـة ماديـة تحكمها الغرائز والطبائع ، مثلها فى ذلك مثل الطبائع الأخرى فى العالم ، والأخلاق لا تعـدو إلا أن تكون سلوكا جبرياً ، مصدره ما يحويه وعاء الإنسان من الغرائز والميول الفطريـة ، وهى غير قابلة للتحول أو التغيير ، ومن ثم فلا مجال لما يسمى علم الأخلاق المعيارى (١) .

وهذا الفريق يستدل على رأيه هذا بأدلة منها :

أولا : أن الخُلق صورة الباطن ، كما أن الخَلْق صورة الظاهر ، فإذا كانت الخلقة الظاهرة لا يستطاع تغييرها ، فالقصير مثلا لا يستطيع أن يجعل نفسه طويلا ، والطويل لا يقدر على أن يجعل نفسه قصيرا ، فكذلك الخُلق الباطن لا يستطيع تغييره ، فالقبيح باطنـا لا يسـتطيع أن يجعل نفسه حسنا .

ثانيا: إن الخُلق يكون بقمع الشهوة والغضب، وقد جرب ذلك بطول المجاهدة، وعرفنا أنـه مـن مقتضى المزاج والطبع، فإنه قط لا ينقطع على الآدمى، فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة(٢).

ثالثا : كل جماعة فى كل دور تاريخى لها مقرراتها الأخلاقية، التى لا يمكن أن تتخلف عـن الظهور فى دورها التاريخى الخاص بها، كذلك لكل فرد فى كل لحظة مـن حياتـه أخلاقـه الخاصة، التى لا يمكن أن تتخلف عن الظهور فى لحظتها المقررة أبداً ، كما هو الحال فـى الظواهر الطبيعية .

رابعا : ما يؤكده الواقع من أن العالم بالأخلاق قد يفعل المنكرات ، والجاهـل قـد يتمسـك بالفضيلة ، ولو كان علم الأخلاق يغنى فى التمسك بالخير والابتعاد عن الشر ما وقع العـالم به فى المنكر أبدا (٣) .

---

(١) الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ، د / حمـدى عبد العال ، ص ٢٧ ، ط : دار القلـم ، الكويت ، ط الثالثة ٢٠٠٢م .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى : ٣ / ٩٠ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى : ٣ / ٥٤ ، وراجع : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة لاندريـه كريسون ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

ومن آراء هؤلاء وأدلتهم يتضح أنهم قد جعلوا الطبائع البشرية كلها عاجزة عن التطور والارتقاء ، وبهذا جعلوا أفعال الناس كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية التى تحدث، ويمكن استنتاجها بالضرورة المنطقية ولو صح ما ذهبوا إليه وكان حقا ، فلماذا إذن وضعت الشرائع والقوانين ، وما دور المصلحين والمربين بل والأنبياء والرسل عامة ، وبناء على هذا فتلك الآراء يعتريها النقد من عدة وجوه :

أولا : إن نظرية (شوبنهور) ومن نحا نحوه لا تقف على قدم ، تجعل الإنسانية تتقدم ، ويعتدل سلوكها بل هو بنظريته هذه يجعل اليأس صرحا شامخا ، تنهدم دونه كل محاولات الأمل فى التغيير إلى الأحسن ، والأفضل والأكمل ومع أن الواقع يوضح فى جلاء إمكان التغيير والتبديل ، فكم من الطبائع الغليظة رقت وسمت ، لذلك نجد أن أجمل ما قيل فى الرد على (شوبنهور) ومن نهج نهجه ما ذكره (اندريه كريسون) حيث قال : " إنه رأى شوبنهور لن يدفع بهذا أحد إلى أن ينمى فى نفسه ميل الرحمة ولا أن يمارس تحت تأثيرها أعمال العدالة ، والطيبة والتنسك [١] .

ثانيا : لنا أن نسأل أصحاب هذا الرأى سؤالا : هل يمكن تعديل السلوك الإنسانى أم لا ؟ فإن أجابوا بالأول فنقول لهم : أى طبع يبقى للإنسان حينئذ فى حديه السلبى الإيجابى ، إن هذا يتنافى قطعا مع قولهم بفطرية الأخلاق ، وما بالذات والطبع لا يتخلف كما يقولون ، وإن أجابوا بالنفى – وهذا لازم مذهبهم – فيترتب عليه أن يكون الإنسان أقل بكثير من الحيوانات فى ميدان الاستجابة للمؤثرات الخارجية ، ألم يطلعنا الواقع على أن بعض الحيوانات يتعدل سلوكها بالتعليم والترويض ؟ ألم نعلم بالوعى المستجيب لبعض العجماوات أمام المواقف والأحداث ؟

ثالثا : إن تهذيب الأخلاق وتقويمها لا يتطلب القضاء على غريزتى الشهوة والغضب ، وتحطيمهما ، وإنما يتطلب تهذيبهما فقط ، فليس المقصود بمجاهدة النفس ، ورياضتها قمع ما فطرت عليه من الغرائز ومحوه بالكلية . وكيف غاب عن هؤلاء أن الأخلاق تقتضى عند فلاسفتها مجاهدة الجانب الحيوانى فى طبائع البشر ، لأن قوامها ضبط الأهواء والرغبات ، وتنظيم الميول الفطرية ، والعواطف المكتسبة بهداية من العقل ، كما أن الدراسات

---

(١) الأخلاق الفلسفية الحديثة لاندريه كريسون ، ترجمة : د / عبد الحليم محمود ، ص ٩٩ بتصرف .

السيكلوجية الحديثة تؤكد على أن النفس البشرية كل متكامل ، يجمع بين الجانب الحيـوانى والجانب الإنسانى معا ، وأن صحتها رهن بالإبقاء على الجانب الحيـوانى ، مـع الاهتمـام بتنظيم نوازعه ، بهداية من العقل (١) .

رابعا : إن القول بأن السلوك الأخلاقى للإنسان كالظواهر الطبيعية فى العالم الطبيعـي كـلام ساقط ؛ لأنه لا يهبط بالإنسان إلى رتبة الحيوان فقط ، بل إنه يتدنى به إلى رتبـة الجمـاد ، وهذا لا جرم بأنه ارتكاس بمنزلة الإنسان ، وفى ذلك يقول الدكتور / محمد عبد الله دراز فى معرض نقده لأصحاب هذا الرأى : " إن أولئك فريق من فلاسفة أوروبا ، غلب على عصرهم البحث فى القوى المادية وطبائعها ، ورأوا ما فيها من قوانين علميـة ثابتـة ، فـأرادوا أن يبسطوا نتائجها على سائر العلوم ، حتى الاجتماعية والأخلاقية ، فهم لذلك يصـورون لنـا الإرادة الإنسانية سجينة فى نطاق حديدى من الغرائز والطبائع ، ويصورون لنا البشرية كلها عاجزة عن التحول والتطور " (٢) .

خامسا : إن لازم هذه النظرية يجعل الإنسان صورة غير منسجمة الظـلال والألـوان ، وإن ملكاته المتعددة تعمل كلها مع انقطاع الأواصر والروابط بينها ، والحق أن الإنسـان لـيس كذلك ، فملكة المعرفة والإدراك تعمل بجانب ملكة النزوع والإرادة والانبعاث ، لا على سبيل التوازى الغير مترابط ، ولكن على سبيل التوافق والانسجام ، وإذا كان الإنسان علـى هـذه الشاكلة ، فإن ما يخالف ذلك يكون مردودا ، ودليل ذلك هو الطبع الإنسانى نفسه (٣) .

بالإضافة إلى ما سبق : أن هذا الرأى – القائل بفطرية الأخلاق – كما يقـول (ابـن مسكويه) (٤) : " يؤدى إلى إبطال قوة التميز والعقل ، وإلى رفض السياسات كلها ، وتـرك

---

(١) انظر : الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها ، د / توفيق الطويل ، ص ١٤٦ وما بعدها ، ط : دار النهضة العربية ، ط الثانية ١٩٦٧م .

(٢) دراسات إسلامية ، د / محمد عبد الله دراز ، ص ٧١ .

(٣) انظر : دراسات فى فلسفة الأخلاق ، د / محمد نصار ، ص ٥٧ .

(٤) أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه ، فيلسوف معاصر للبيرونى وابن سينا ولـد فـى الـرى ، وتوفى فى أصفهان سنة ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م اشتغل بالطب والكيمياء علاوة علـى الفلسـفة ، كتب بالعربية والفارسية ، وترك زهاء عشرين مصنفا ٠ له فى الفلسـفة الأخلاقيـة تهـذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . [انظر : معجم الفلاسفة ، جورج طرابيشى ، ص ٣١] .

الناس همجا مهملين ، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكون عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهو ظاهر الشناعة جدا " (١) .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فالقول بعدم تقبل الأخلاق للتطور والتغيير يفتح باب الانحراف والانحلال الخلقى أمام المنحرفين ، فيكون ذلك مدعاة إلى انتشار الرذيلة والأوبئة الخبيثة ، التى تنهش جسم الإنسان بغير ما وازع أو رقيب ، وفى هذا قضاء على المسئولية من أساسها ، ورفض للتكليف السماوى ، وعدم الإيمان لما جاء به الرسل من عند الله بثواب المطيعين وعقاب العاصين (٢) .

وقد جاء فى القرآن الكريم ما يفهم منه هذا المعنى ، ألا ترى أن قوله سبحانه : { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } (٣) لا يكون له معنى إلا إذا كان للتذكرة ، والوعظ والإرشاد أثر فى تهذيب الأخلاق ، وتقويم السلوك ، وبالتالى فإن التسليم بصحة ما ذهب إليه (شوبنهور) ومن نهج نهجه يؤدى إلى أن المواعظ ، والتأديبات لا تكون لها أى قيمة فى حياة البشر ، وبالضرورة لا يكون هناك أى فائدة أو معنى فى إرسال الرسل ، طالما أن طبائع الناس لا تستجيب لما يقال لهم ، ويرشدونهم إليه ، كما أن القوانين التى يسنها المشرعون ، والمناهج الإصلاحية التى يضعها المصلحون ، تفقد كل قيمتها فى ظل هذا التسليم بفطرية الأخلاق ، وهو بلا شك يعد إسرافا وتضييعا لقيمة الأخلاق .

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه ، ص ٥٩ ، ط : منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالى : ٣ / ٤٣٦ بتصرف .

(٣) سورة الذاريات الآية [٥٥] .

المبحث الثالث

القائلون باكتساب الأخلاق وأدلتهم

وفى مقابل الرأى الأول الذى يرى فطرية الأخلاق ، نجد الكثير من الفلاسفة ، والمفكرين سواء من الغربيين ، أم من الإسلاميين الذين يرون أن الأخلاق الإنسانية قابلة للتغير، حسب اختلاف النشأة ، وتفاوت أسباب ووسائل التربية والطرق الصحيحة فى تهذيب النفس، ونظرا لكثرة هؤلاء الفلاسفة والمفكرين ستقتصر الدراسة على نماذج منهم.

وعلى رأس هؤلاء جميعا فيلسوف أثينا الأكبر " سقراط " [١] الذى قرر أن الخير فى العلم والشر فى الجهل ، وأن معرفة الفضيلة تكسبها ، والجهل بها مصدر الرذيلة ومآتاها ، وعلى هذا فالفضيلة فى نظره هى توأم العلم، والرذيلة هى توأم الجهل ، وإذا كان الإنسان قابلا للتعلم ، فإنه يكون تبعا لذلك قابلا لأن تتعدل أخلاقه ، وذلك بطريقة العلم والمعرفة [٢] .

ولذلك يقول : " إن الفضيلة يمكن أن تعلم ، وإن كانت ليست يسيرة فى تعلمها ، كما هو الحال فى الحساب مثلا ، لأنها تعتمد على عدة عوامل أخرى ، كالوراثة ، وأثر البيئة والتربية ، والتجربة وغيرها ، ولكن إذا كانت المعرفة ممكنة التعليم وجب أن تكون الفضيلة كذلك " [٣] .

وعلى هذا فإن الفضيلة على رأى سقراط من الممكن تعلمها ؛ لأنها حسب اعتباره ، وفهمه نوع من المعارف ، التى يمكن ويصح اكتسابها وتعلمها ، ولكن لا بواسطة التفكير

---

(١) سقراط فيلسوف يونانى . ولد نحو عام ٤٧٠ ق.م ومات فى أثينا عام ٣٩٩ق.م كان أبوه نحاتا وأمه قابلة ، لقد كان دمث الخلق إلى حد التواضع وكأنه الطفل . لقد انصرف عن مهنة أبيه ، وأهمل أسرته وتفرغ للتأمل وارتياد الأوساط الفكرية . [انظر : معجم الفلاسفة للطرابيشى ، ص ٣٣٦ ، والموسوعة الفلسفية ، ص ٢٤٤] .

(٢) انظر : دراسات فى فلسفة الأخلاق ، د / محمد نصار ، ص ٢٦ .

(٣) انظر : قصة الفلسفة اليونانية ، د / أحمد أمين ، ص ١٠٣ ، ط : النهضة المصرية ، ط التاسعة .

النظرى المحض ، كما هو الشان فى علم الطبيعة مثلا ، ولا بالممارنة والعمل وحدهما ، كما يرى السوفسطائيون [١] إذ اعتبروا أن الفضيلة قابلة لنقلها إلى الغير بواسطة المعلم ، بــدلا من اكتسابها عن طريق التفكير أو التربية الأسرية والعلاقات الاجتماعية .

أما (سقراط) فيرى أن تعليم الفضيلة يكون بــالتفكير النظــرى المحــض المقتــرن بالممارنة والعمل معا [٢] .

ولهذا يقول (سقراط) : " أما العدل والفضيلة الناشــئان عــن محــض الاعتيــاد ، والتربية إذا لم يعتمد على المعرفة والنظر ، فتلمس فى الظلماء قد يؤدى عفوا إلى الحــق ، ولكن ليس فيه مقنع ، وإنما ما فيه المقنع أن تجد فى البحث للوصول إلــى معرفــة الخيــر وتحديده " [٣] .

ومما سبق يتضح أن (سقراط) يرى أن الفضيلة تكتسب عن طريق الــتعلم بجانــب الاعتياد والممارسة، وقد أصاب فى هذه النقطة ؛ لأن الفضيلة من الممكن تعلمها واكتسابها، وذلك ما نشاهده فى أحوال الناس من تعلم الفضيلة باتباع ما أمر به الأنبياء والمرســلون ، وما كتبه المفكرون ، وإلا لكانت الرسالات السماوية عبثا ، وجهــود النبيــين والمرســلين والمفكرين لا جدوى منها .

---

(١) فرقة قيل كانوا من المشتغلين بالحكمة وتدريسها، وجدوا فى اليونان فى القرن الخــامس قبــل الميلاد وأوائل الرابع وقالوا الضروريات بعضها حسيات ، والحس يغلط كثيرا ، والبديهيات قــد كثرت فيها اختلافات الآراء واعتراضات العقلاء . وكلهم يجزم بأحقية قوله ، ويــزعم بــبطلان أقوال مخالفه . [انظر المعجم الفلسفي د/ عبد المنعم الحفنى ص ١٥١] .

(٢) انظر : تاريخ الأخلاق ، د / محمد يوسف موسى ، ص ٦٨ ، ط : دار الكتاب العربى بمصــر ، ط الثالثة ١٩٥٣م ، وراجع : الأسس النظرية للسلوك الأخلاقي ، د / أبو بكــر التلــوع ، ص ٣٩، ط : جامكعة قاريونس بنغازى .

(٣) مبادئ الفلسفة. أ.س رابوبرت ، ترجمة: د/ أحمد أمين، ص ٧١، ط : النهضــة المصــرية ، ط الثامنة .

وعلى نفس نهج (سقراط) يسير (أرسطو) [١] الذى يرى أن الفضيلة الأخلاقية تكتسب عن طريق التعلم لا عن طريق الطبيعة والفطرة، ولو تأملنا فى كل الفضائل الأخلاقية لما وجدنا أياً منها قد نشأ فينا طبيعيا أو فطريا . والسبب فى ذلك هو أن الشئ الطبيعى لا يمكن أن يتحول بالعادة إلى نقيضه . فالحجر الذى من طبيعته السقوط إلى أسفل حسب قانون الجاذبية لا يمكن توجيهه عن طريق العادة إلى أعلى . إذا فالفضيلة الأخلاقية لا توجد فينا طبيعيا وإنما تغرز فينا عن طريق التعود [٢] .

كذلك لقد ذهب (أرسطو) إلى أن الفضائل سواء أكانت خلقية أم عقلية إنما تحصل نتيجة للتعلم والتعود والممارسة ، ولذلك يقول : " إن الفضيلة على نوعين : أحدهما : عقلى، والآخر : أخلاقى ، فالفضيلة العقلية تكاد تنتج دائما من تعليم إليه يسند أصلها ونموها ، ومن هنا يجيئ أن بها حاجة إلى التجربة والزمان ، وأما الفضيلة الأخلاقية فإنها تتولد على الأخص من العادة والشيم " [٣] .

ومن هذا يتضح أن (أرسطو) يرى أن الفضائل لا تحصل فينا بفعل الطبع وحده ، فإن الطبع لا يهب لنا إلا الاستعداد لهذا الفعل الفاضل ، وأن العادة والممارسة هى التى تنميها وتتممها ، فالإنسان يصير عادلا بإقامة العدل ، وشجاعا باستعمال الشجاعة ، فالطبيعة وهبت لنا الأشياء ، وما على الإنسان إلا الممارسة والتعود على الفعل .

---

(١) ولد أرسطو فى اسطاغيرا سنة ٣٨٤ ق.م وتوفى فى خلقيس سنة ٣٢٢ ق.م يمكن القول عن أرسطو انه كان أعظم نوابغ النظر العقلى فى تاريخ الفكر اليونانى وهذه الزعامة لا يمكن ان تنكر عليه إلا لصالح معلمه فى أفلاطون . ولفت إليه نظر أستاذه فلقبه " العقل " لشدة ذكائه ، و " القراء " لسعة إطلاعه ، قضى بالأكاديمية نحو عشرين سنة حتى وفاة أستاذه . [انظر : معجم الفلاسفة للطرابيشى ، ص ٤٧ ، وراجع : الموسوعة الفلسفية ، د / عبد المنعم الحفنى ، ص ٣٦] .

(٢) انظر : علم الأخلاق لأرسطو ، ترجمة : د / أحمد لطفى : ١ / ٢٢٥ وما بعدها ، ط : دار الكتب العربية المصرية ، ط ١٩٢٤م ، وراجع : الأسس النظرية للسلوك الأخلاقي ، د / أبو بكر التلوع ، ص ٧١ .

(٣) علم الأخلاق لأرسطو : ١ / ٢٢٥ .

ولأجل هذا يؤكد (أرسطو) على مدى أهمية تربية النشئ منذ الطفولة على العـادات الفاضلة ، فيقول : ليس بشئ صغير الأهمية أن نتخذ منذ الطفولة وباكرا بقدر الممكن العادات الفلانية أو الفلانية ، وذلك نقطة كبيرة الأهمية جدا ، وبعبارة أحسن هى كل شئ[١].

ويفهم من هذا أن أرسطو يرى أن تعليم النشئ منذ الصغر على مكارم الأخلاق ، والأعمال الفاضلة ، والتعود عليها وممارستها ، هذا الفعل له عظيم الأثر فى استخراج جيل فاضل .

وإلى نفس المنهج الذى نهجه كل من (سقراط) و (أرسطو) قد نهجه كثير من فلاسفة وحكماء الإسلام ، الذين رأوا أنه لا يكفى فى الدراسة الأخلاقية البحث العلمى فى الحياة الخلقية وقوانينها ، ولكن يجب أن تهدف إلى الاقتناع بأنه فى إمكاننا بواسطة الجهد الدائب أن نرتفع بأخلاقنا إلى المستويات الحسنة ، وأن نتخلص من الأخلاق السيئة ، وهذا ما تنبه إليه حكماء وعلماء الإسلام ، ومنهم ابن مسكويه الذى ذهب إلى أن الأخلاق تحصل فينا عن طريق الاكتساب ، فهى ليست فطرية ولا طبيعية فينا ، ولذا يقول : " الأخلاق ليست فطرية ، وليست فى طبع الإنسان ، لأن الفطرة والطبع أمور لا تتغير ولا تتبدل ، بل هى موجودة وثابتة دائما فى الإنسان ، أن النار محرقة دائما ، والحجر يهوى إلى أسفل ، ولا يستطيع أحد أن يغير حركته إلى أعلى ، والماء ينساب إلى الأرض المنخفضة فى العليا وهكذا " [٢] .

ومعنى هذا أن أخلاق الإنسان ما دامت تتغير وتتبدل فهى ليست فطرية ، وليست فى طبع الإنسان ، إذ أن الفطرة والطبع من الأمور الثابتة فى الإنسان .

ويمثل ابن مسكويه فى هذا بالحجر والنار ، حيث لكل منهما طبيعة معينة ، لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ، وهذا ما يدل على أنها ليست فطرية وإنما هى مكتسبة .

ويستدل (ابن مسكويه) بقضية منطقية على أن الخلق ليس بالطبع إذ يقول : " كل خلق يمكن تغييره ، لا شئ مما يمكن تغيره هو بالطبع ، ولا خلق ولا واحد منه بالطبع ...

---

(١) المصدر السابق : ١ / ٢٢٨ بتصرف يسير .

(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه ، ص ٢٥ وما بعدها ، وراجع : دراسات فى الفلسفة الخلقية ، د / فيصل بدير عون ، ص ٣٦٤ .

" وينتفع (ابن مسكويه) بكل من (جالينوس) (١) و (أرسطو) فى تأليف برهانه المنطقى الدال على قبول الخلق للتغيير ، ولكنه يبدو مؤيدا لفكرة اختلاف المستويات فى قبول التخلق الفاضل ، والتحلى بالآداب ، فالناس فى ذلك مراتب كثيرة مشاهدة لنا جميعا ، كما يسلم بأن هناك من هو أهل لقبول الآداب ، ومن هو نافر منها ، فالناس " ليسوا على رتبة واحدة ، وأن فيهم المتواني والممتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير والشرير ، والمتوسطون بين هذه الأطراف في مراتب لا تحصى كثيرة ، وإذا أهملت الطباع، ولم تروض بالتأديب والتقويم نشأ كل إنسان على سوم طباعه ، وبقي عمره كله على الحال التي كان عليها في الطفولة ، وتبع ما وافقه في الطبع " (٢) .

ولذلك يقول : " وهذه النفس مستعدة للتأديب ، صالحة للعناية لا يجب أن تهمل ، ولا تترك ومخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة. وإن كانت بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة ، فإن نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأي وعزيمة تميلها من شئ إلى شئ ، فإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها " (٣) .

ولأجل هذا ينبغى علينا أن نسعى إلى أن نطبع فى نفس الصبى القيم والمبادئ والمثل العليا ، وأن نحثه على حب الكرامة والاعتزاز بالنفس ، وينبغى لنا أن نذم أمامه الأشرار ، وأن نمدح الأخيار، مع تشبيهنا الأشرار بالحيوانات الشرسة، وتصويرنا له الأخيار بصورة جميلة(٤).

ويفهم من هذا أن الأخلاق تحصل عن طريق الاكتساب ، فإن النفس على استعداد تام لقبول الأخلاق بطريق التأديب ، وبطريق التوجيه والعناية ، فلا ينبغى أن تهمل ، وتترك

---

(١) جالينوس: طبيب وفيلسوف يونانى ولد فى برغاما ١٢٩ أو ١٣١ م ومات فى روما عام ١٩٩ أو ٢٠١ م كان أبوه هو المهندس المعمارى نيكون رباه تربية ممتازة درس الرياضيات والفلسفة، ثم الطب فى أزمير والإسكندرية، كان غزير الإنتاج ككاتب، وقد كتب فى المنطق واللاهوت والفلسفة وجميع فروع الطب [انظر: معجم الفلاسفة للطرابيشى، ص ٢٣١ وما بعدها].

(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، ص ٢٧ وما بعدها بتصرف .

(٣) تهذيب الأخلاق فى التربية لابن مسكويه ، ص ٤٨ ، ط : الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط الأولى ١٩٨٥م .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٠ بتصرف .

بمخالطة أضدادها ، الذين يفسدون بالمقارنة والمعاشرة ، فنفس الصبى ساذجة لا تولد على صورة معينة ، إنما هى قابلة لأن تتشكل بحسب ما يحيط بها من العادات ، وطرق التهذيب ، فمتى شكلت نفس الصبى بصورة ما ، نشأ على هذه الصورة واعتاد عليها .

ولهذا نجد أن ابن مسكويه قد قرر عدة وسائل لاكتساب الأخلاق .

وسائل اكتساب الأخلاق :

يرى ابن مسكويه أن هناك عدة وسائل لاكتساب الأخلاق منها :

١ – عن طريق التأديب وفى ذلك يقول : " وعلى الوالدين أخذهم بها وسائر الآداب الجميلة بضروب السياسات ، من الضرب إذا دعت إليه الحاجة ، أو التوبيخات أن صدقهم ، أو الأطماع في الكرامات أو غيرها مما يميلون إليه من الراحات ، أو يحذرونه من العقوبات ، حتى إذا تعودوا ذلك ، واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة ، أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوه تقليدا ، وينبهوا على طرق الفضائل ، واكتسابها والبلوغ إلى غايتها بهذه الصناعة التي نحن بصددها " (١) .

٢ – ومن طرق اكتساب الأخلاق طريق الفهم والقصد يقول (ابن مسكويه) : " ونحن إنما نعلم ونتعلم الفضائل الإنسانية التى نساكن بها الناس ونخالطهم " (٢) .

ومعنى هذا أن الحصول على اكتساب الأخلاق يكون بالتعليم تارة ومخالطة الناس تارة أخرى أما التعليم فيقول : " وليست الفضائل طبيعية فينا ، وإنما هى مكتسبة ، ومن ثم يجب الركون إلى تعليم أصول المعارف والمعاملات حتى لا تضعف قوة التميز والعقل ، وأنسب المعارف إلى الطفل العلم بالشريعة ؛ لأنها لازمة لقبول الحكمة وطلب الفضيلة والبلوغ إلى السعادة " (٣) .

٣ – وأما مخالطة الناس فيقول عنها : " إن من يخالط الناس ، ولم يساكنهم فى المدن

---

(١) تهذيب الأخلاق فى التربية لابن مسكويه ، ص ٢٩

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣) الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى ، د / أحمد محمود صبحى ، ص ٣١١ ، ط : دار المعارف ، ط الثانية .

لا تظهر فيه العفة، ولا النجدة ولا السخاء ولا العدالة ، بل تصير قواه ، وملكاته التى ركبت فيه باطلة " [١] .

ويفهم من هذا أن الفضائل تحصل بمخالطة الناس ومعاشرتهم ، وأن من لم يخالط الناس ، ويعاشرهم لا يعدو فاضلا ، وتعد أجزاء النفس التى تكونت فيه من عقلية وغضبية، وشهوانية باطلة ، وعلى ذلك يمكننا القول بأن الأخلاق عند (ابن مسكويه) إنما تحصل نتيجة للأدب ، والتعليم والاعتياد ، ومخالطة الناس وغير ذلك ، ومما يجب ملاحظته أنه على الرغم من كون (ابن مسكويه) فيلسوف إسلامى إلا أن طرق اكتساب الأخلاق عنده قد تأثر بها بالفلسفة اليونانية ، حيث إنه قد تأثر بأرسطو فى عدة نقاط منها فى تقسيمه الفضيلة إلى خلقية وعقلية ، وكون الفضيلة لا تحصل عن طريق الطبع ، وإنما بالاكتساب ، وأن هذا الاكتساب يأتى إلى الإنسان بالتعليم والممارسة .

والذى أراه إذا كان أرسطو قد سبق إلى هذه الفكرة ، فيمكن تفسير ذلك بأنه من توارد الخواطر ، فالفكرة أساسا إلى الروح الإسلامية إذ أنها تستمد مضمونها من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ويكفى أن نشير فى هذا المقام إلى قوله – سبحانه – : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [٢] ثم إنها ضرورية لتبرير مسئولية الإنسان، ومشروعية الأديان والأخلاق والتربية، وبدونها لا يكون لهذا كله تبريرا ولا هدفا .

الإمام الغزالى وآراؤه :

إن الإمام (الغزالى) عندما تناول قضية فطرية الأخلاق واكتسابها ، نراه قد ذهب إلى أن الأخلاق مكتسبة ، وقد جعل من ضمن طرق اكتسابها الطبع والاعتياد والتعليم وغير ذلك .

وقد تحدث عن هذه الطرق إجمالا فقال : " الفضيلة تارة تحصل بالطبع ، وطوراً باعتياد ، ومرة بالتعليم ، فمن تضافرت في حقه الجهات الثلاث ، حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً ، فهو في غاية الفضيلة " [٣] .

فالفضيلة التى هى غاية الأخلاق تحصل بإحدى هذه الطرق الثلاث الطبع أو الاعتياد

(١) تهذيب الأخلاق فى التربية لابن مسكويه ، ص ٢٥ .

(٢) سورة الشمس الآيات [٧ : ١٠] .

(٣) ميزان العمل للغزالى ، تحقيق : د / سليمان دنيا ، ص ٢٥٨ ، ط : دار المعارف بمصر ، ط الأولى ١٩٦٥م .

أو التعليم ، ومن توفرت فى حقه الجهات الثلاث كان فى غاية الفضيلة ثم يأخذ الغزالى فى تفصيل هذه الطرق وبيانها .

أولا : الطبع أو الفطرة :

ويبين (الغزالى) هذه الطريقة قائلا : " وهذا الاعتدال يحصل على وجهين : أحدهما : بجود إلهي وكمال فطري ، بحيث يخلق الإنسان ، ويولد كامل العقل ، حسن الخلق ، قد كفي سلطان الشهوة والغضب ، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع ، فيصير عالما بغير تعلم ، ومؤدبا بغير تأديب " (١) .

ويتضح من هذا النص أن الإنسان قد يحصل على الأخلاق بفطرته وطبعه ، فيولد ويصير بفطرته وطبعه كامل العقل حسن الخلق ، لا يسيطر عليه الغضب أو الشهوة ، بل تكون فيه معتدلتين خاضعتين لما تأمر به الحكمة ، فيصير بذلك عالما بالفضيلة من غير تعلم ، وحسن الخلق بغير تأديب ، فرب صبى خلق صادق اللهجة سخيا جريا .

ثانيا : طريق الاعتياد :

ويقول (الغزالى) فيه : " والوجه الثاني : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة، وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يُحصّل لنفسه خلق الجود ، فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود ، وهو بذل المال ، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له ، ويتيسر عليه فيصير به جوادا " (٢) .

ومعنى هذا أن الإنسان متى عود نفسه بالرياضة ، والمجاهدة على تكلف الفضائل ، والخلق الحسن يصير ذلك طابعا ، فتصدر منه الفضائل بغير تفكر وبدون تكلف ، فمثلا يصبح المرء كريما بتكلفه فعل الكرم ، حتى يصير بالاعتياد والمجاهدة طابعا له ، فيصدر عنه فعل الكرم من غير فكر وبدون تكلف ، فالفطرة الإنسانية قابلة لكل شئ ، فبالمجاهدة والرياضة والتربية تتغير النفس الإنسانية من حال إلى حال .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى : ٣ / ٨٥ .

(٢) المصدر السابق : ٣ / ٨٥ .

ثالثا : طريق التعلم :

ويحصل عند (الغزالى) كما يقول : " بتعلم بشريّ وتكلف اختياري، يحتاج فيه إلى زمان وتدرب وممارسة ، وبتقوي الفضيلة شيئاً فشيئاً ، خفي التدريج ، كتدريج الشخص في النمو ، وإن كان في الناس من يكفيه ، أدنى ممارسة ، وذلك بحسب الذكاء والبلادة " [١] .

ويفهم من هذا أن الإنسان قد يحصل على الأخلاق بطريق التعليم ، والتدريب المستمر للأخلاق والفضيلة ، حتى يصير فاضلا بالتدرج فى تعلمه شيئا فشيئا ، كتدرج الطفل فى النمو حتى يصير رجلا ، وذلك بحسب الذكاء والبلادة .

والغزالى إذ ينقد أولئك الذين ينكرون قابلية الأخلاق للتغيير ، فإنه يدعم رأيه بالحجج ، مستشهدا بما نراه فى الواقع ، حتى أننا لنرى كثيرا من الحيوانات يمكن تبديل خلقها ، فكيف ينكر فى حق الآدمى ، إذ ينتقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ، وكل ذلك تغير للخلق .

ثم يقول الغزالى مدعما رأيه فى قابلية الأخلاق للتغير : " ولو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا ، والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله – ﷺ – : " حسنوا أخلاقكم " [٢] .

ويفهم من هذا أن الغزالى يريد القول بأن عدم قبول الأخلاق للتغيير يؤدى إلى إبطال جدوى النصائح والمواعظ والتأديبات ، وأن الإنسان لا يصل إلى الفضيلة إلا بجهاد نفسه ، وهواه التى هى أعدى أعدائه ، وقد سن الغزالى لهذا الجهاد طرقه ، ووضع له خططه ، وشغل بذلك قدرا كبيرا من كتاباته .

وينبغى أن ننبه إلى أن تغير الخلق لا يعنى استئصال ما فى النفس من غرائز قد تؤدى إلى الرذيلة ، فهذا كما يقول الغزالى : " غلط قد وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من

---

(١) ميزان العمل للغزالى ، ص ٢٥٧ .

(٢) إحياء علوم الدين : ٣ / ٨٢ ، قال العراقي : الحديث رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ يا معاذ حسن خلقك للناس منقطع ورجاله ثقات اهـ . تخريج أحاديث إحياء علوم الدين : ٤ / ١٥٨٣ .

المجاهدة قمــع هذه الصفات بالكلية ومحوها ، وهيهات فإن الشـــهوة خلقت لفائدة ، وهــي ضروريـــة في الجبلة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه " (١) .

ولا يقتصر الغزالى على القول بتغير الخلق والاستشهاد عليه ، ولكنه يحاول بعد ذلــك أن يرسم الطريق لتغير الخلق المذموم ومعالجته .

فيذكر " أن النفس فى هذا كالبدن ، فكما أن البدن إن كان صحيحا كان واجب الطبيــب أن يعنى بحفظ الصحة عليه ، وإن كان مريضا أصبح واجبة علاجها بضدها ، فيعالج البخــل بالتسخي ، والكبر بالتواضع ، والشره بالكف عن المشتهى ولو تكلفاً " (٢) .

وأساس تغير الخلق ، وعلاج مساوئه أن يعرف الإنسان عيوبه ، وذلك بأربعة أمــور هى كما يقول الغزالى :

١ – أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس ، مطلع على خفايــا الآفــات ، ويحكمــه المريد (الإنسان الذى يكون فى بداية الطريق الصوفى) في نفسه ، ويتبع إشارته .

٢ – أن يطلب صديقا صدوقا ، بصيرا متدينا ، فينصبه رقيبا على نفســه لــيلاحظ أحوالــه وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة نبهه إليه .

٣ – أن يستفد من ألسنة أعدائه فى معرفة عيوبه .

٤– أن يخالط الناس ، فكل ما رآه مذموما عند الخلق اتهم نفسه به، فإن الطباع متقاربة(٣).

ويذكر الغزالى طريقا آخر فى معالجة الخلق المذموم ، وهو طريق الوقاية منــه قبــل وقوعه ، ويكون ذلك بأمرين هما :

١ – الابتعاد عن أسباب هذه الخلق ، أو مثيراته ومهيجاته من بواعث وخواطر ووســاوس مختلفة .

---

(١) إحياء علوم الدين : ٣ / ٨٣ .

(٢) المصدر السابق : ٣ / ٨٩ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين : ٣ / ٩٤ وما بعدها ، وراجع : الأخلاق عند الغزالى ، زكى مبارك ، ص ١١٩ .

٢ – التعود على ممارسة الأخلاق الحسنة ، والابتعاد عن الأخلاق السيئة ، ويبدأ هذا منذ الصغر (١) .

هذا هو رأى الغزالى فى الخلق ، وإمكانية تغير الخلق المذموم ، والطريق إلى الوقاية منه وعلاجه ، ونعتقد أن رأيه هذا يتفق وروح الإسلام من جهة ، ويبرر مسئولية الإنسان ، ومشروعية بعث الأنبياء ، والرسل الذين أرسلوا ليتمموا مكارم الأخلاق .

ولقد تبع الإمام الغزالى فى رأيه باكتساب الأخلاق مفكرون وعلماء كثيرون منهم الإمام (ابن القيم ت ٦٩١ – ٧٥١ هـ) الذى يرى أن تكون الخلق بالنفس يتم على مراحل، ويأتى بالتكليف والتمرين ، كالتحلم والتشجع والتكرم ، وسائر الأخلاق ، فإذا تكلفه الإنسان ، واستدعاه صار سجية له وطبعا ، مستندا فى ذلك إلى حديث الرسول – ﷺ – : " ومن يتصبر يصبره الله " (٢) .

ومعنى هذا أن من زاول خلقا يريده واعتاده ، وتمرن عليه صار ملكة وسجية وطبيعة ، فلا يزال الفرد يتكلف الصبر حتى يصير الصبر له سجية ، كما أنه لا يزال يتكلف الكرم والشجاعة ، والصدق حتى تصير له أخلاقا بمنزلة الطبائع ، ومن حكمة المولى – سبحانه – أن جعل فى الإنسان قوة القبول والتعليم ، فتغير الطبائع عن مقتضاها أمر غير مستحيل .

وإلى مثل هذا الرأى الذى يرى باكتساب الأخلاق قد ذهب الفيلسوف ابن سينا (٣)

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين : ٣ / ٩٩ ، وراجع : الأخلاق بين الفلسفة والإسلام ، د / عبد المقصود عبد الغنى ، ص ٢٥٦ ، ط : مكتبة الزهراء ، ط أولى ١٤٠٦هـ .

(٢) صحيح البخارى ، تحقيق / محمد زهير بن ناصر الناصر ، كتاب : الجمعة ، باب : من انتظر حتى تدفن : ٨ / ٩٩ ، حديث ٦٤٧٠ ، ط : دار طوق النجاة ، ط : الأولى ١٤٢٢هـ ، وانظر : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ، ص ٢٣ وما بعدها ، ط : الإيمان .

(٣) أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا ، ولد فى قرية أفشنا من قرى بخارى فى شهر صفر ٣٧٠هـ آب ٩٨٠م وتوفى فى همدان " إيران " " سنة ٤٢٨هـ " حزيران ١٠٣٧ " ألف ابن سينا عددا كبيرا من التصانيف : وقد تضمن ثبت مؤلفات ابن سينا الذى نشره فى القاهرة سنة ١٩٥٠ الأب قنواتى ٢٧٦ عنوانا، فأكثر مؤلفات ابن سينا لا تزال مجهولة. [انظر : معجم الفلاسفة للطرابيشى ، ص ٢٣ وما بعدها] .

الذى يرى أن الأخلاق تحصل عن طريق الاكتساب فيقول : " الأخلاق كلها الجميل منها ، والقبيح ، هى مكتسبة ، ويمكن للإنسان متى لم يكن له خلق حاصل أن يحصّله لنفسه ، ومتى صادفها أيضا على خلق حاصل أن ينتقل بإرادة عن ذلك الخلق ، والذى يحصل به الإنسان لنفسه الخلق ، ويكسبه متى لم يكن له أو ينقل نفسه عن خلق صادفها عليه هو العادة ، وأعنى بالعادة تكرير فعل الشئ الواحد مرارا كثيرة زمانا طويلا فى أوقات متقاربة ... ولذلك إذا اعتدنا من أول أمرنا أفعال أصحاب الأخلاق الجميلة حصل لنا باعتيادها الخلق الجميل ، وإذا اعتدنا من أول أمرنا أفعال أصحاب الأخلاق القبيحة حصل لنا باعتيادها الخلق القبيح " (١).

ومفهوم هذا النص أن الفضيلة والأخلاق بصفة عامة تحصل عند ابن سينا بطريق الكسب ، وهذا الاكتساب يأتى نتيجة للتعود على الخلق الفاضل ، وتكراره مرات عديدة فمتى اعتاد الإنسان أفعال أصحاب الخلق الجميل ، أصبح ذلك عادة فيه ، وحصل له الخلق الجميل، وكذلك متى اعتاد أفعال أصحاب الخلق القبيح صار ذلك عادة فيه وحصل له الخلق القبيح وإلى مثل هذا الرأى يذهب ابن باجة الذى يرى أن الأخلاق لا تحصل بالطبع أو الفطرة ، وإنما تحصل بالاكتساب فيقول : " الفضيلة ليست من الخصال الطبيعية بل هى مكتسبة ، فهى ملكة خلقية يكون بها صاحبها فاضلا ، فنحن لا نولد ومعنا تلك الخيرية فى الأهواء والمشاعر ، ولا نحصل عليها بالتعليم الفطرى فقط ، إنما هى نتيجة التدريب والتعود على ضبط المشاعر والدوافع ، وعلى هذا فالحدث الصغير يحتاج إلى أن يدرب على احترام القاعدة الصائبة قبل أن يكون قادرا على أن يدرك بنفسه أنها القاعدة الصائبة " (٢) .

ومن هذا النص يتضح أن الفضيلة لا تحصل عن طريق الطبع أو الفطرة ؛ لأن الإنسان لا يولد ومعه تلك الخيرية فى الأهواء والمشاعر ؛ لأن الأهواء والمشاعر الطبيعية ليست بذاتها خيرة ولا شريرة ، ولا حسنة ولا سيئة ، وإنما هى بالعادة التى يستخرج منها

---

(١) تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات لابن سينا (رسالة العهد) ، ص ١٤٦ ، ط : مطبعة هندية بالموسكى بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م ١٣٢٦هـ .

(٢) فلاسفة المغرب ، د / على عبد الفتاح المغربى ، ص ١٣٢ ، ط : مكتبة الحرية الحديثة ١٩٩٠م .

الخلق الحسن أو السيئ ، بحسب ما تتلقاه من القوة العاقلة بالتعليم والتدريب والتعود على ضبط المشاعر والأهواء ، وذلك أن الطفل الصغير يحتاج إلى التدريب على احترام القاعدة الصحيحة قبل أن يكون له القدرة على أن يدرك بنفسه أنها القاعدة الصحيحة وبهذا تحصل الأخلاق عند ابن باجة نتيجة للتعليم والاعتياد والممارسة .

ومما سبق ذكره يمكن القول أنه وفقا للمبادئ والمفاهيم الإسلامية لو لم يكن لدى الإنسان قدرة على اكتساب حد ما من الفضائل ما كلفه الله بذلك وعلى سبيل المثال إن أشد الناس بخلا يستطيع بوسائل التربية والتعود والتدريب أن يكتسب مقدارا ما من خلق الكرم، ومن صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه؛ لذلك فهو مسئول عن اكتساب ما يستطيعه، فإذا أهمل تربية نفسه ، وتركها من غير تدريب وتهذيب تنمو نمو الشوك فى الغاب، فإنه سيحاسب على إهماله ، وسيجنى ثمار تقصيره ، ووفق هذا الأساس وضع الإسلام الخطط التربوية التى تنفع فى التربية على الأخلاق الفاضلة فالاستعداد لذلك موجود فى الواقع الإنسانى ، وإن اختلفت نسبة هذا الاستعداد الفطرى لاكتسابها ، وشأن الأخلاق فى هذا كشأن الأعضاء الإنسانية فالعضو الذى لديه استعداد وقابلية فطرية لاكتساب مهارة ما من المهارات يمكن أن يصبح بالتدريب والتعليم مكتسبا لهذه المهارة ، أما العضو الذى ليس له هذا الاستعداد ، وتلك القدرة فإنه من الصعب بل من المتعذر تدريبه وتعليمه ؛ لكى يكتسب تلك المهارة ، وكذلك شأن الأخلاق .

وبهذا يتضح لنا أن أصحاب المذاهب التى تجعل الخلق متحجرا لا يمكن البحث فيه لتغييره أو لتبديله خاطئون واهمون يصح أن نقول لهم : كم من الحجارة يشّقق فيخرج منه الماء ، وكم من الصخور تكونت بأيدى النحاتين إلى حيث يريدون ، وعلى هذا فالراجح عندى والذى يميل إليه العقل ويطمئن القلب إليه أن الخلق يمكن تغييره ، واكتسابه لما ذكر من الأدلة السابقة ، ولما سوف يذكر من الأدلة الآتية :

أولا : القرآن الكريم :

إن المتأمل فى كثير من الآيات القرآنية يجد أن المولى – سبحانه – قد ذكر فى كثير من آياته أنه قد فطر الإنسان سويا غير معوج ، ولا منحرف ، وأن النفس البشرية يمكن تهذيبها والتحكم فيها ، قال – سبحانه – : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا

فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } ومع ذلك أرشده إلى الخير وألهم نفسه ذلك حيث قال سبحانه : { فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } وقد بين – سبحانه – أن الاتجاه بالنفس إلى الطهر ، والخير يجعلها من الفالحين : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } وأن الانتقال بها إلى الشر يؤدى بها إلى الخيبة والخسران: { وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } " (١) .

ولهذا يمكن القول أن تغيير الخلق ممكن وإلا فعلام يكون الفلاح والخسران أضف إلى ما سبق لقد بين الله للإنسان طريق الخير وطريق الشر حيث قال – سبحانه – : { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } أى : أرشدناه إلى طريق الخير والشر (٢) .

وفى مقام آخر يبين القرآن الكريم أن ما يلحق الإنسان من أوصاف مذمومة ، لا يرجع إلى أصل فطرته ، وإنما يرجع إلى إيثاره طريق الشهوات ، وحديثه عن الإنسان حينئذ ليس مقصودا به ذلك الكائن صاحب الفطرة الصافية ، وإنما يقصد به حالاته التى يكون فيها متجردا من فطرته ، وقعا تحت تأثير القوى المادية فيه ، وذلك ما تبينه الآية الكريمة : {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى } ويلحق بهذه الآية كل الآيات التى وصفت الإنسان بالكنود والظلوم والجهول وغير ذلك (٣) .

ثانيا : السنة المطهرة :

إن المتأمل فى السنة النبوية ليجدها حافلة بالكثير من الأحاديث الدالة على إمكانية تغير الأخلاق وتبديلها ، ولكثرة تلك الأحاديث ستقتصر الدراسة على بعضها ، ومن ذلك : أنه قال – ﷺ – : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول : { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } (٤) ففى هذا الحديث دلالة

---

(١) انظر : الجوانب الأخلاقية فى العقيدة الإسلامية، ص ١٨، د / سيد عبد العزيز السيلى ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م .

(٢) انظر : مختصر ابن كثير : ٣ / ٦٤١ ، وراجع : المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٣) انظر : الجوانب الأخلاقية فى العقيدة الإسلامية، د / سيد عبد العزيز السيلى ، ص ٢١ .

(٤) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ، كتاب : التفسير ، باب : قوله تعالى : { لا تبديل لخلق الله } . [ينظر : فتح البارى : ١٣ / ٤٥٧ ، ح ٤٧٧٥] . والمراد بالبهيمة الجدعاء : هى المقطوعة الأذن . [انظر : فتح البارى : ٤ / ٥٢٧٩ ، ٥٢٦] .

واضحة على ما للتربية والمنشأة من أثر واضح فى تغيير الفطرة وتحويلها عن واقعها الأصلى .

وقال – ﷺ – فيما يرويه الإمام مسلم عن عياض أن رسول الله – ﷺ – قال ذات يوم فى خطبته : " أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ... " الحديث [١] ، فهذا الحديث يدل كذلك دلالة واضحة على أن الانحراف والتغيير إنما وقع بوسوسة الشيطان ، فحولت الفطرة وغيرت الخلق من التوحيد والإخلاص إلى الشرك والجحود .

وقد أقر كثير من مفكرى الإسلام هذا الرأى،ولذلك يقول ابن خلدون: " إن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى، كانت مهياة لقبول ما يرد عليها، وينطبع فيها من خير وشر"[٢].

ويقول الغزالى : " إن الصبى خلق قابلا للخير والشر جميعا ، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين " [٣] .

وبعد هذا كله نستطيع أن نقرر أن القرآن الكريم والسنة النبوية قد بينا موقفهما من الفطرة الإنسانية ، كما بينا فى نفس الوقت أن جميع الارتكازات التى أصابت الإنسان فى أخلاقه ، لم يكن مرجعها إلى مركوز الفطرة ، بل كل ذلك راجعا لتغليب النوازع المادية فيه ، وهذا يعضد ما ذكرناه ووضحناه بأن الأخلاق قابلة للتعديل والاكتساب ، فلو لم يكن ذلك ممكنا لما قال رسول الله – ﷺ – لمعاذ : " استقم وليحسن خلقك " [٤].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه، كتاب: الجنة ووصف نعيمها وأهلها ، باب : الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة، وأهل النار: ١٩٧/١، المطبعة المصرية ومكتبتها ١٩٢٤م.

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٩٣ .

(٣) إحياء علوم الدين للغزالى : ٣ / ٥٤ .

(٤) صحيح ابن حبان تحقيق: شعيب الأرنؤوط، كتاب: البر والإحسان ، باب : الجار : ٢ / ٢٨٣ ، حديث رقم ٥٢٤ ، ط : مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط : الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٣م .

المبحث الرابع

وسائل اكتساب الأخلاق

بادئ ذى بدء نود القول أن الإسلام لم يدع وسيلة تربوية نافعة إلا استخدمها فى مختلف المجالات التربوية ، ومنها التربية الأخلاقية ، وذلك لأن الناس أصناف ، وكل صنف منهم قد تلائمه وسيلة من الوسائل وتتناسب مع خصائصه النفسية والفكرية ، فى حين أنه قد لا تجدى معه وسيلة أخرى ، وحركة الإسلام الإصلاحية التربوية لابد أن تأخذ بكل الوسائل لتلائم كل الناس ، وبالبحث عن الوسائل التى أرشدنا إليها الإسلام لاكتساب الأخلاق نجد إضافة لما سبق من الوسائل التى ذكرت فى ثنايا البحث عن كل من ابن مسكويه والغزالى وغيرهما كثيرا من الوسائل ونظرا لكثرتها ستقصر الدراسة على أهمها ، ومنها :

أولا : الغمس فى البيئة الصالحة والرفقة الخيرة :

من الوسائل التى رسمها الإسلام لاكتساب الأخلاق الفاضلة الغمس فى البيئات الصالحة ، وذلك لأن من طبيعة الإنسان أن يكتسب من البيئة التى يعيش فيها ويتعايش معها ، ما لديها من أخلاق وعادات وتقاليد وأنواع السلوك عن طريق المحاكاة والتقليد ، بذلك تتم العدوى النافعة أو الضارة ، وفى الحكم السائدة : أن الطبع للطبع يسرق (١) .

وإذا أردنا البرهنة على ذلك أننا إذا وضعنا إنسانا بخيلا بين أناس كرماء مدة من الزمن فإنه بحكم المصاحبة والمعاشرة يكتسب منهم الأخلاق الكريمة ، فتخف عنه نسبة البخل الفطرية المغروسة لديه ، وهكذا فى كل ما يكتسبه الإنسان بالتخلق ، عن طريق البيئة الصالحة التى تلفه فى دوامتها ، لذلك كان من المتعذر جدا إصلاح إنسان منحرف الخلق ، فاسد السلوك ، ما لم يُعزل عزلا كاملا عن الأشرار ، وما لم يقطع عن مصاحبتهم ، لأن صلته بهم ، واختلاطه فيهم من أقوى العوامل التى تفسد كل علاج إصلاحى يعالج به ،

---

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكه : ١ / ٢١١ ، ط : دار القلم ، الكويت .

فوجوده بينهم يذكره دائما بطعم ما كان يمارسه من اللذات والشهوات معهم ، فيكون صارفا له عن تقبل أنواع العلاج [١] .

لهذا تعتبر الصحبة ذات أثر بالغ فى تكوين الأخلاق واكتسابها خيرها وشرها ، وغالبا ما تكون عدوى الصحبة الشريرة أسرع أثرا من الخيرة ، فليس أسرع فى فساد الإنسان الصالح من قرين السوء ، وفى القرآن الكريم والسنة النبوية ما يوضح أثر الخلة الطيبة ، فترغبنا فى مصاحبتها ، وأثر الخلة السيئة فتحذرنا من مصاحبتها ومجالستها ، يقول الله – تعالى – : { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا } [٢] ، ويقول الرسول – ﷺ – : " مثل الجليس الصالح والجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك : إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحا خبيثة " [٣] ، ويقول الشاعر :

واحذر مصاحبة اللئيم فإنه يعدى   كما يعدى الصحيح الأجرب

وقال حكيم : أنبئنى عمن تصاحب أنبؤك من أنت [٤] .

ثانيا : القدوة الحسنة :

إن القدوة الحسنة تعتبر المثال الواقعى للسلوك الخلقى الأمثل ، وهذا المثال الواقعى قد يكون مثالا حسيا مشاهدا ملموسا يقتدى به ، وقد يكون مثالا حاضرا فى الذهن بأخباره وسيره، وصورة مرتسمة فى النفس بما أثر عنه من سير وقصص وأنباء من أقوال وأفعال.

ولذلك يعتبر المربى هو المثل الأعلى للطفل يترسم عاداته ، ويتخلق بأخلاقه ، وتنطبع أخلاق الطفل على غرار أخلاق والديه ومربيه .

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها : ١ / ٢١٣ بتصرف .
(٢) سورة الفرقان الآية [٢٧] .
(٣) صحيح البخارى كتاب : الجمعة ، باب : من انتظر حتى تدفن : ٧ / ٩٦ ، حديث ٥٥٣٤ .
(٤) انظر : الأخلاق ، د / أحمد أمين ، ط : دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط : الثالثة ١٩٣١م .

وسر تأثير القدوة الحسنة فى اكتسـاب الأخلاق يرجع إلى عدة أسباب ، منها :

١. أن القدوة الحسنة تحتل فى المجتمعات الإنسانية مرتبة من المجد لا يحظـى بهـا غيرهـا ، وهذه المرتبة محفوفة بالتقدير الكبير من الناس ، ومحفوفة بالثناء والإعجاب ، وكـل هـذه يولّد فى الفرد المحروم من أسباب هذا المجد حوافز قوية تحفزه إلى تقليد القدوة الحسـنة ، ومحاكاتها فى أخلاقها وسلوكها ، وعن طريق التقليد فى الفضائل تكتسـب الفضـائل ، لأن الممارسة التقليدية تتحول إلى عادة ممكنة ، وهذه تتحول إلى خلق مكتسب (١) .

٢. أن القدوة الحسنة المتحلية بالفضائل الممتازة تعطى الآخرين قناعة بـأن بلـوغ هـذه الفضائل من الأمـور الممكنة ، التى هى فى متناول القدرات الإنسانية ، وشاهد الحـال أقوى من شاهد المقال (٢) .

ولقد وجه القرآن الكريم بصراحة تامة إلى القدوة الحسنة ، حيـث قـال المـولى – سبحانه – : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَـوْمَ الْـآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } (٣) فى هذه الآية إرشاد عظيم من الله – سبحانه – للمـؤمنين أن يجعلـوا رسول الله – ﷺ – قدوة حسنة لهم ، يقتدون به فى أعماله ، وأقوالـه ، وأخلاقـه ، وكـل جزئيات سلوكه فى الحياة ، فهو خير قدوة يقتدى بها الأفراد العاديون ، والأفراد الطـامحون لبلوغ الكمال الإنسان فى السلوك ، وجعل الله الـذين آمنـوا معـه وصـدقوا وأخلصـوا ، واستقاموا أمثلة رائعة يقتدى بها فى معظم الفضائل الفردية والاجتماعية ، ثم إن كل عصـر من العصور من بعدهم لا يخلو من وجود طائفة من أمة محمد – ﷺ – تصـلح لأن تكـون قدوة حسنة ، قلت هذه الطائفة أو كثرت ، فقد بشر بذلك الرسول – ﷺ – فـى قولـه : " لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يـأتى أمـر الله وهم على ذلك " (٤) .

---

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، حسن عبد الرحمن حبنكه : ١ / ٢١٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة الأحزاب الآية [٢١] .

(٤) صحيح البخارى كتاب : الجمعة ، باب : من انتظر حتى تـدفن : ٤ / ٢٠٧ ، حـديث ٣٦٤١، وانظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها، حسن عبد الرحمن حبنكه: ١ / ٢١٦ ، وتهذيب الأخـلاق فى الإسلام، د/ عبد الغنى عبد المقصود خشبة ، ص ٥٠ ، ط : دار الثقافة العربية ١٩٩١م .

ثالثا : سلطان الدولة الإسلامية :

أن للسلطة المادية التى تمارسها الدولة الإسلامية ، أثر فعال فى إلزام الأفراد والجماعات بالمنهج الأخلاقى الذى رسمه الإسلام للناس ، وفى تربية نفوسهم وقلوبهم على الفضائل الأخلاقية ، ولذلك كان من مهمات الدولة الإسلامية ضبط انتظام الأفراد والجماعات فى نظام الأخلاق الإسلامية ، بما توليه من رقابة يقظة ، وحراسة ساهرة ومحاسبة للمنحرفين ، وتشجيع للسابقين ، وربما كان وازع السلطة الإدارية هذا أقوى وازع لإلزام الجماهير بسلوك السبيل الأقوم ، وقد جاء فى الأثر عن عثمان بن عفان – ﷺ – أنه قال : " إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " (١) .

وفى الختام نقول : كم كان للقدوة الحسنة ، والبيئة الصالحة ، والصحبة الخيرة ، وسلطان الدولة ، وغير ذلك من الوسائل من أثر عظيم فى اكتساب الإنسان للخلق الفاضل ، والسلوك الراشد القويم .

---

(١) سيرة عثمان بن عفان – ﷺ – ، علي محمد محمد الصلابي : ١ / ١١٤ ، ط : الأولى ، وانظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، عبد الرحمن حنبكة : ١ / ٢٢٠ .

الخاتمة

الحمد لله فى البدء والختام ، والصلاة والسلام على خير الأنام ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الشامة الكرام .

وبعد ،،،

فهذه خاتمة لدراستنا حول موضوع : الأخلاق الإنسانية بين الفطرة والاكتساب ، وقد أسفرت الدراسة عن أهم النتائج الآتية :

أولا : إن الأخلاق الإنسانية جبلة موجودة فى النفس بالقوة ، ثم تصير بالفعل بيسر تارة وعسر أخرى ، ويعترف بهذا ويؤمن به من ينظر إلى الإنسان وطباعه ، وفطرته نظرة فلسفية تنفذ به إلى الباطن ، ولذا كانت الأخلاق الإنسانية قابلة للتغير من سيئ إلى حسن ، ومن حسن إلى أحسن ، والعكس ، وبهذا كان الإنسان مسئولا عن أعماله وأخلاقه ، ومحاسب على سوء سلوكه ، وهو مطالب بأمور كى يحسن أخلاقه وتصرفاته ، قال – سبحانه – : { إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ } (١) والواقع خير دليل ، وشاهد على قبول الأخلاق للتغير والاكتساب ، حيث نرى سلوك بعض الحيوانات تتغير من الوحشية إلى الوداعة ، ومن النفور إلى الاستئناس ، أفلا تكون أخلاق الإنسان أولى بهذا التغير والتبديل .

ثانيا : إن الرسالات السماوية كلها جاءت من أجل إنقاذ البشرية من الانحطاط فى الأخلاق والسلوك ، وإذا لم تكن الأخلاق قابلة للتغير لما كانت هناك حكمة للتعاليم السماوية ، وجهود الأنبياء والمرسلين والمفكرين والمصلحين على مر العصور والزمان ، ولبطلت المواعظ والوصايا والتأديبات .

ولذلك كان القول بعدم قبول الأخلاق للتغير والتطور ، يفتح باب الانحراف والانحطاط الأخلاقى أمام المنحرفين ، فيكون ذلك مدعاة إلى انتشار الرذيلة التى تقضى على المجتمع بأسره ، وفى هذا قضاء على المسئولية من أساسها ، ورفض للتكاليف السماوية .

---

(١) سورة الرعد من الآية [١١]

ثالثا : إن الإنسان إذا سار على هدى من الأخلاق الإسلامية كان معتدلا ، واستحق الجـزاء الأوفى من الله – ﷻ – ، أما إذا انحرف عن الطريق التى رسمه الإسلام ، وتعـدى حـدود الله، وطغى وبغى كان له الويل والهلاك والخسران المبين .

وفى الختام : نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص والقبول فى القول والعمـل ، وأن يجعـل آخـر أعمالنا خواتمه ، وخير أيامنا يوم أن نلقاه ، إنه ولى ذلك والقادر عليه .

وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

فهرس المصادر والمراجع

** القرآن الكريم جل من أنزله .

١. الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ، د / مقداد يالجن ، ط : الخانجى بمصر ١٩٧١م .

٢. إحياء علوم الدين للغزالى ، تحقيق / محمد عبد الله الزغبى ، ط : دار المنار .

٣. الأخلاق ، د / أحمد أمين ، ط : دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط : الثالثة ١٩٣١م .

٤. الأخلاق الإسلامية وأسسها ، عبد الرحمن حبنكه ، ط : دار القلم ، الكويت .

٥. الأخلاق النظرية والعملية فى الإسلام وعلاقتها بالأخلاق فى الأديان الأخرى، د / حسن جبر، ط: الحسين الإسلامية، ط الثانية ١٩٩٤م .

٦. الأخلاق بين الفلسفة والإسلام ، د / عبد المقصود عبد الغنى ، ط : مكتبة الزهراء ، ط أولى ١٤٠٦هـ .

٧. الأخلاق عند الغزالى ، زكى مبارك .

٨. الأخلاق فى الفلسفة الحديثة ، اندريه كرسون ، ترجمة د / عبد الحليم محمود ، أبو بكر ذكرى ، ط : الحلبى ، القاهرة .

٩. الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية ، ليفى بريل ، ترجمة : د / محمود قاسم ، وراجعه : د/ السيد محمد بدوى ، ط مصطفى الحلبى .

١٠. الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين ، د / حمدى عبد العال ، ط : دار القلم ، الكويت، ط الثالثة ٢٠٠٢م .

١١. الأسس النظرية للسلوك الأخلاقي ، د / أبو بكر التلوع ، ط : جامعة قاريونس بنغازى .

١٢. تاج العروس للزبيدى ، تحقيق د / حسين نصار ، ط : حكومة الكويت ١٩٧٤م .

١٣. تاريخ الأخلاق ، د / محمد يوسف موسى ، ط : دار الكتاب العربى بمصر ، ط الثالثة ١٩٥٣م .

١٤. تأسيس ميتافزيقا الأخلاق ، كانط ، ترجمة : د / عبد الغفار مكاوى ، ط : الدار القومية للنشر والطبع ١٩٦٥م .

١٥. تأملات فى فلسفة الأخلاق ، د / منصور رجب ، ط : الأنجلو المصرية ، ط : الثالثة ١٩٦١م .

١٦. تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات لابن سينا (رسالة العهد) ، ط : مطبعة هندية بالموسكى بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م ١٣٢٦هـ .

١٧. التعريفات للجرجانى ، تحقيق د / عبد المنعم الحفنى ، ط : دار الرشاد .

١٨. التفسير الكبير للرازى ، ط : أولى ١٩٩٨م ، المطبعة البهية المصرية .

١٩. تهذيب الأخلاق فى الإسلام ، د / عبد الغنى عبد المقصود خشبة ، ط : دار الثقافة العربية ١٩٩١م .

٢٠. تهذيب الأخلاق فى التربية لابن مسكويه ، ط : الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط الأولى ١٩٨٥م .

٢١. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه ، ط : منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان .

٢٢. الجوانب الأخلاقية فى العقيدة الإسلامية ، د / سيد عبد العزيز السيلى ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م .

٢٣. حياة الحقائق ، غوستان لوبون ، ترجمة / عادل الزعيتر ، ط : دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٤٩م .

٢٤. دائرة المعارف للبستانى ، ط : دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

٢٥. دراسات إسلامية ، د / محمد عبد الله دراز ، ط : دار القلم ، الكويت .

٢٦. دراسات فى العقيدة والأخلاق ، د / محمود محمد مزروعة وآخرين

٢٧. دراسات فى الفلسفة الخلقية ، د / فيصل بدير عون .

٢٨. دراسات فى فلسفة الأخلاق ، د / محمد نصار ، ط : دار القلم ، الكويت ، ط : أولى ١٠٨٢م .

٢٩. الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهانى ، ط : دار الكتب العلمية ، بيــروت ، لبنـــان ، ط : أولى ١٩٨٠م .
٣٠. سيرة عثمان بن عفان –ﷺ–، علي محمد الصلابي، ط: الأولى .
٣١. شوبنهور ، اندريه كريسون ، ترجمة د / أحمد كوى ، ط : دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٨م .
٣٢. صحيح ابن حبان تحقيق : شعيب الأرنــؤوط ، ط : مؤسســـة الرســـالة – بيـــروت ، ط : الثانية ، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م
٣٣. صحيح البخارى، تحقيق/ محمد زهير بن ناصـــر الناصـــر، ط : دار طـــوق النجـــاة ، ط : الأولى ١٤٢٢هـ .
٣٤. صحيح مسلم ، المطبعة المصرية ومكتبتها ١٩٢٤م .
٣٥. الظاهرة الأخلاقية وعلاقتها بالوراثة والبيئة، د/ عثمان عبد الواحد .
٣٦. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ، ط : الإيمان .
٣٧. علم الأخلاق لأرسطو ، ترجمة : د / أحمد لطفى ، ط : دار الكتب العربية المصـــرية ، ط ١٩٢٤م .
٣٨. علم النفس والأخلاق – تحليل نفسى للخلق – تاج . أ . هادفيلد ، ترجمة / محمد عبـــد المجيد أبو العزم ، ط : مكتبة مصر.
٣٩. الفكر التربوى عند المتكلمين المسلمين، د/ أحمد عرفات القاضى
٤٠. فلاسفة المغرب ، د / على عبد الفتاح المغربى، ط : مكتبة الحرية الحديثة ١٩٩٠م .
٤١. فلسفة الأخلاق ، د / توفيق الطويل ، ط : دار النهضة العربية ١٩٧٩م .
٤٢. فلسفة الأخلاق فى الإسلام، د / محمد يوسف موسى ، ط : مكتبة الخانجى ، القـــاهرة ، ط : الثالثة .
٤٣. الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى، د / أحمد محمود صبحى ، ط : دار المعـــارف ، ط الثانية .

٤٤. الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها ، د / توفيق الطويــل ، ط : دار النهضــة العربيــة ، ط الثانية ١٩٦٧م .
٤٥. قصة الفلسفة اليونانية، د / أحمد أمين ، ط : النهضة المصرية ، ط التاسعة .
٤٦. كلمات فى مبادئ علم الأخلاق ، د / محمد عبد الله دراز ، ط : القاهرة ١٩٥٢م .
٤٧. لسان العرب لابن منظور ، ط دار المعارف .
٤٨. مباحث فى فلسفة الأخلاق، د/ محمد يوسف موسى، ط: دار الكتاب العربى ١٩٤٨م .
٤٩. مبادئ الفلســفة . أ.س رابويرت ، ترجمة : د/ أحمــد أمين ، ط : النهضة المصرية، ط الثامنة .
٥٠. مختار الصحاح للرازى ، ط دار المعارف .
٥١. معجم الفلاسفة ، جورج طرابيشى ، ط : دار الطبيعة ، بيروت ، ط : الأولى ١٩٨٧م .
٥٢. المعجم الفلسفى ، د / جميل صليبا ، ط : دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، لبنان .
٥٣. المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى ، ط : مصطفى البابى الحلبى .
٥٤. ميزان العمل للغزالى ، تحقيق : د / سليمان دنيا ، ط : دار المعارف بمصر ، ط الأولى ١٩٦٥م .